الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة الإخوة منتوري قسنطينة

كلية الآداب واللغـــــات
قسم اللغة العربية وآدابها

الرقم :.....
الرقم التسلسلي :.....

عنـــــــــوان البحـــــــــث :

الإسهامات النقدية عند خلفاء بني العباس (بين المعيارية الجمالية و الأخلاقية)

دراسة تحليلية

بحث مقدم لنيل شهادة الماجستير في الأدب القديم

من إعداد الطالب :
عمـــار بعـــداش

تحت إشراف الدكتور :
العلمـــــي لـــــرلوي

لجنة المناقشة :

1) الدكتور :..... جامعة:..... رئيسا
2) الدكتور/ العلمي لرلوي جامعة : الإخوة منتوري(قسنطينة) مشرفا مقررا
3) الدكتور : ..... جامعة :..... عضوا مناقشا
4) الدكتور : ..... جامعة :..... عضوا مناقشا

السنة الجامعية 2004 / 2005

المقدمة

1/الإطـــار المعـــرفي:

يتفق دارسوا النص الأدبي أن ماهية النقد عند العرب بمفهومه العلمي الدقيق إنما وجد على يـد بن سلام الجمحي من خلال كتابه (طبقات فحول الشعراء)الذي أسس فيه لمكانة الناقد وطالـب بالاعتراف به كصاحب اختصاص له ما لذوي الاختصاصات الأخرى من خصوصية ومرجعية لا يحق لأي تجاوزها.

لكن في المقابل يرى بعض الباحثين أنه من الإجحاف إهمال ذلك الزخم المعرفي الذي اتخذ من النص مادة له بالملاحظات الدقيقة حينا و التعقيبات اللافتة حينا أخر ،خاصة تلك التي صـدرت عن بيئات نقدية كانت السليقة فيها لا تزال سليمة بدءا بالعصر الجاهلي ووصولا إلى عصـر التدوين و التنظير مرورا بعصر الإسلام و عصر الخلفاء الراشدين .

لذلك جاءت العناية بهذه الظواهر أو الخواطر أو الإسهامات النقدية من لدن جمع من المهتمـين بتاريخ النقد العربي بالجمع طورا و التصنيف و التبويب طورا آخر غير أن هـذه الدراسـات كانت في كل مرة تنأى عن جوهر الدرس النقدي و تتحاشى صميم المصطلح الفني مما جعلها أشبه بالدراسات التاريخية النقدية أو بالدراسات الأدبية التي تتجاوز المصطلح النقـدي إلـى البحث في إيحاءات القصيدة و دقائق حياة صاحبها .

و يرجع اهتمام هؤلاء الدارسين بالنتاج النقدي للعرب قبل عصر ابن سلام إلـى خصوصـية المسهمين فيه، نظرا لما عرفوا به من فهم صحيح و ذوق أصيل ،لذلك تختلف قيمة كل إسـهام نقدي باختلاف نصيب قائله وحظه في المجتمع فلا يمكن التسوية بين آراء الدهماء من العامـة وآراء الصفوة من الخاصة ،و هو ما انصب البحث و التركيز عليه من خلال إفراد فئة الخلفاء بهذه الدراسة النقدية التي تتبع آراءهم و إسهاماتهم وتعقيباتهم على نصـوص أدبيـة شـهدتها منتدياتهم و مجالسهم دون إغفال المعالم الكبرى المكونة لكل خليفة من خـلال التركيـز علـى انتمائيتين كبيرتين هما:الإنتمائية العربية و الإنتمائية الإسلامية أو ما يصـطلح علـى تسـميته بالذاتية من خلال معياريتين هامتين هما المعيارية الجمالية و المعيارية الأخلاقية،تحت عنوان:

الإسهامات النقدية عند خلفاء بني العباس بين المعيارية الجمالية و الأخلاقية

وقد فرضت علينا طبيعة البحث أن نضبط العنوان ،و نقصره على خلفاء بني العباس لعدة أسباب منها:

1*-أن الحركة الأدبية والعلمية ما ازدهرت إلا في ظل خلفائهم خاصة الأوائل منهم[1]،بفضل حرصهم وتشجيعهم للمبدعين ،و رغبتهم الحثيثة في صقل المواهب و شحذ القرائح،حتى ارتبط الأدب بمجالسهم ومجالس أمرائهم ارتباطا وثيقا[2]فلقد تسابق الناس في هذا العصر إلى التثقف بالثقافة الأدبية شعرا ونثرا،و خبرا ونادرة ،فقلما نجد إنسانا اتصل بهم لا يحسن من ضروب الأدب شيئا ،إما بدراية و إما برواية.

2*-أن لقب الخليفة الذي تمحورت حوله هذه الدراسة لم ينضج إلا بعد اختلاط الأجناس و اتساع رقعة الدولة ، و شيوع ثقافات شتى لا عهد للعرب بها ،فاتضحت بذلك معالم الخليفة الكبرى ،المكونة لشخصيته النقدية خاصة،و تجلّى ذلك التمازج بين إنتمائيتين واضحتين ، ترتكز إحداهما على الجانب الجمالي المستمد من التراث العربي الجاهلي ،وتتخذ الأخرى من المبادىء و القيم الأخلاقية التي أقرها الإسلام أساسا ،و هو ما لم يبرز لنا بوضوح في العصر الأموي ،وهو ما يعني كذلك أن مثل هذه الدراسة ما كان لها لتدلو بدلوها في ما أثير و يثار من خلاف حول المصطلح ،خاصة ذلك الذي يتخذ من "المعيار" أو "المعيارية" موضوعا ،أو من" الجميل "و"الفني"و"الأدب"وما إليها مادة للبحث.

3*-أن الفترة الزمنية المشكلة لهذا العصر – العباسي-ممتدة و متنوعة ،و زاخرة ،ظهرت فيها فنون ،وانقرضت أخرى ،و استقلت فيها أغراض و انحسرت أخرى ،و إن ظل الشعر محتفظا بدوره الشامل ، مما جعلنا لا نعدوه إلى ما سواه من فنون الأدب ،ونتخذه بذلك نموذجا نلقي من خلاله الضوء على ما كان سائدا من إسهامات نقدية .

4*-و قد أملت علّي ما عرفته الخلافة العباسة من تشرذم و ضعف بدءا بالقرن الرابع الهجري عدم مجاوزة القرن الثالث ،إذ"لم يكد القرن الرابع الهجري يبتدىء حتى كانت الخلافة العباسية في حال ظاهرة من الضعف و الاضطراب لصغر كثير من الخلفاء ...و انصرافهم إلى اللهو و المتع الذاتية مما أدى إلى ضياع هيبة الخليفة"[3]

---

1)-ينظر تاريخ آداب اللغة العربية :لجرجي زيدان ،دار مكتبة الحياة- بيروت-ط02 .1979.01 ،01 /326.

2)-ينظر العقد الفريد :لابن عبد ربه ،01/ص د من مقدمة المحقيقين.

3)- العلامة اللغوي بن فارس الرازي :د/ محمد مصطفى رضوان،دار المعارف-مصر-1971.ص:14.

فقد تحولت الخلافة بعد مقتل المتوكل- تحديدا-إلى يد الأتراك و لا يخفى ما جناه هؤلاء على ازدهار الحركة الأدبية التي شهدها عصر الرشيد و المأمون و الواثق،و المعتصم ، والمتوكل.. وهي تقريبا الشخصيات التي وجدت لها مكانا في هذه الدراسة.

2/المنهج وخطة البحث:

لقد كان لطبيعة المادة العلمية أثر بالغ في اختيار المنهج التحليلي، الذي لا يهتم كثيرا بالتسلسل التاريخي في تتبع إسهامات الخلفاء العباسيين ،بقدر ما يقوم على إظهار العلاقة بين الخليفة و الشاعر.على ضوء خلفية كل منهما الجمالية أو الأخلاقية، دون إغفال لما كان سائدا وقتذاك ،من معايير نقدية عامة.

ولا شك أن التحليل ألجأني أحيانا إلى تتبع بعض الجوانب النفسية بحثا عن العلة،و تحصيلا للصواب في تفسير رأي أو قول أو فعل ...و هو كله لا يعدو ما عرف عن فئة الخلفاء من خصوصية طالت حتى الجانب النقدي.

وقد اعتمد في ذلك بعد المقدمة على فصل تمهيدي يتناول ما كان مطروقا من نقد جمالي أو أخلاقي ،وفق بيئاته الثلاث الشهيرة ،وهي أبواب كثر طرقها قديما وحديثا،لذلك كان التناول نوعيا بالتركيز على الأعيان في بيئة الحجاز،و على الشعراء والنحاة والرواة في بيئة العراق. ليتناول المبحث الثالث فئة الخلفاء موضوع الدرس انطلاقا مما عرفته بيئة الشام ،من احتفاء بشتى المسهمين على اختلاف مشاربهم ،ونوازعهم،ممثلا في معاوية ابن أبي سفيان رائد الفرع السفياني،وعبد الملك بن مروان،نائبا عن الفرع المرواني...

ليكون الفصل الأول مقصورا على ما أبداه الخلفاء العباسيون من إسهامات نقدية وفق المعيارية الجمالية وما كان ذلك ليتأتى لولا بعض التنظيرات التي استعين بها في تحليل بعض معايير الخلفاء النقدية الجمالية ،والتي توزعت حسب مادتها على جانبين ،عني الأول بالإيقاع بنوعيه الزماني والمكاني ،واختصّ الثاني بالبحث في العلاقات التي تنجر عن انتظام الإيقاعات الزمانية والمكانية ،وقد استقصي ذلك بالتدرج من خلال البحث في جمالية البيت،فالقصيدة ليشمل الشاعر عامة..مع ما يقتضيه كل عنوان من إضاءة وتحديد لماهية موضوع البحث،وما يستدعيه من تمثيل وتحليل وتطبيق على ما جمع من آراء نقدية.

وكان منطقيا أن يفرد الفصل الثاني للمعيارية الأخلاقية في إسهامات الخلفاء العباسيين النقدية،موزعا على وظيفة الشعر ورسالته بمنظور أخلاقي ،وما أثر عنهم من آراء حول تصوراتهم للأغراض في ضوء الأخلاق دائما ،كل حسب خصوصيته وما أحاط به من ظروف سياسية أو اجتماعية أو ثقافية...

ونظرا لكون الحكم لا يكتمل إلا إذا قورن بسواه ،وقرن إلى واقعه،خصص الفصل الأخير للتعرف على مدى ما تركته هذه الإسهامات بشقيها الجمالي والأخلاقي من أثر في الحركة النقدية عامة ؛بدءا بمستوى الإبداع الذاتي و انتهاء إلى التأثر و التأثير في السياسة و مجالس الحكم،مرورا بالمساجلات و الرواية ،و اقتراح المواضيع،و الوعد و الإيعاد...و غيرها.

ليفصح البحث أخيرا عن خاتمة، ضمنت أهم توصل إليه من نتائج،مذيلة بقائمة للمصادر و المراجع و فهرس.

3/ المصادر والمراجع المعتمدة:

إن فكة الكتابة في النقد العربي القديم فكرة ليست بالجديدة، حتى ليدعو كثرة تناول في هذا المجال إلى العزوف عن التفكير في بحثها على الإطلاق ، لولا بعض الإيماءات و الخطرات التي تعن من حين إلى آخر،في أثناء تصفح هذا الكم الهائل ،مغرية الباحث بالمضيّ قدما ضاربا عن قول عنترة "هل غادر الشعراء من متردم"صفحا،ذلك بأن هذه الدراسات ما كانت لتخرج في معظمها عن نمط البحث عن النقد لدى فئات بعينها قصرت عليها النظر و التمحيص ،وهي غالبا لا تعدو الشعراء وبعض الرواة و النحاة ...لتلج سريعا عالم النقد المتخصص متجاوزة خيطا دقيقا ظل يربط كل هؤلاء و يوثق صلاتهم،و يلم شعثهم أعني بهم فئة الخلفاء التي عكفت زمنا على تشكيل الحيز المكاني المثالي لممارسة الإبداع، و النقد على حد سواء.

بالإضافة إلى ما تضمنته هذه الدراسات من إيحاءات تبعث على تتبعها و استجلائها ،خاصة تلك التي تعلقت بدور "الحاكم" في توجيه "الإبداع و ما صاحب كل ذلك من تنوع و تطور.

ولعل أبرز تلك الدراسات ،كتاب الدكتور عز الدين إسماعيل الموسوم "الأسس الجمالية في النقد العربي" و هو كتاب أفدت منه كثيرا ،خاصة في الفصل الأول، وكتاب الدكتور ناصر عبد الرحمن الخنين "الالتزام الإسلامي في الشعر" ، و غيرهما من الدراسات الكثيرة المتناولة لقضيتي الدين والفن أو الجمال والأخلاق ،كبحث الدكتور رمضان الصباغ حول "العلاقة بين

الجمال والأخلاق في مجال الفن" ،و كتاب "دراسات في الأدب الإسلامي" لسامي مكي العاني، و"الظاهرة الجمالية في الإسلام " لصالح أحمد الشامي و غيرها...

أما من حيث المادة العلمية فقد اعتمدت على مجموعة من المصادر أهمها أوراق الصولي ،تاريخ الخلفاء للسيوطي ،و الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني ،و غيرها من أمات الكتب التراثية التي أسهبت في ذكر أخبار الخلفاء موضوع البحث.

4) الصعوبات:

لا يخلو البحث العلمي من عقبات، يعين عليها تمثل الغاية و اختيار الوسيلة،فيتحقق للباحث حينها نشوة التعقب و التحري،و الاستقصاء، و المقارنة و التحليل...و هي نشوة يختص بها النقد القديم،وإن أضافت إليه مشاركة الخلفاء و الشعراء،مجالسهم ومقاسمتهم همومهم أحزانهم شعورا خاصا،يشكر عليه من أخذ بيدي إليه،وصحبني فيه بالأخلاق العالية قبل الإشراف و التوجيه،أستاذي الدكتور العلمي لراوي،وأساتذتي أعضاء لجنة المناقشة الذين تفضلوا عليّ بقراءتهم و أربوا عليها بتوجيهاتهم، و ملاحظاتهم،فرحم الله من أهدى إليّ عيوبي.

كما أشكر كل من رعى هذا البحث حتى استوى على سوقه، وآتى أكله .

مدخل حول

النقد الجمالي و الأخلاقي في العصر الأموي

1*/ بيئة الحجاز:

أ*- ابن أبي عتيق

ب*- السيدة سكينة بنت الحسين

2*/ بيئة العراق :

أ*- الشعراء

ب*- الرواة والنحاة

3*/ بيئة الشام:

أ*- معاوية بن أبي سفيان

ب*- عبد الملك بن مروان

كان الحجاز أول الإسلام، مهبط الوحي ومبدأ الرسالة الجديدة، فمكة المكرمة بيت الله الحرام، ومقصد حجاجه من كل فج عميق...، ومولد هذا الرسول الكريم الذي جاء ليخرج الناس، من ظلمات الشرك إلى أنوار التوحيد.

لذلك فلا غرو أن تشكل مكة المكرمة نواة الحكم الإسلامي، لكن أبت المؤثرات المختلفة إلا أن ينتقل هذا الحكم، نحو المدينة المنورة، أين شيّد الرسول وأصحابه صرح الدولة الإسلامية، التي أخذت تتسع في جميع الاتجاهات.

ومع مجيء الأمويين واستحواذهم على الحكم، بدأت الدولة الإسلامية تنأى بعاصمتها شـــيئا فشيئا عن الحجاز، تاركة إياه في شبه عزلة، عادت بذاكرته إلى العصور الأولى.

فقد اتخذ معاوية من دمشق عاصمة، له و لملكه الذي بناه على أكتافهم، كما اتخذ علي في بداية هذا العصر الكوفة مقرا له، ما جعل الحجاز- كما قلنا سلفا – يبتعد رويدا رويدا عن الحياة السياسية، و عن المشاركة في ما كان دائرا آنذاك من خصومات حول الخلافة، غير أن هذا لم يمنع من مشاركته في الإبداع ومضاهاته لغيره من بيئات الشعر فقد كانت بيئته " أسبق البيئات إلى التطور بشعرها ، إذ سبقت التطور بحياتها الاجتماعية تحت تأثير الثروات التي أصابها أهلها من الفتوح "[1] .

أما بيئة العراق فأهلها لم ينغمسوا كنظرائهم الحجازيين، في الجوانب المادية مفضلين الانغماس في كل ما يمت إلى العقل " فالعراق في هذا العصر كانت نشيطة من الوجهة العقلية بالقياس إلى الحجاز "[2].

و أما بيئة الشام فكانت أشبه بالسوق الأدبي الذي يرتاده المبدعون من كل مكان طلبا للرفعة والمال فقد كان " الشعراء يفدون على الخلفاء، يطلبون جوائزهم وكان من أهم ما يعرضون له في مجالسهم الشعر والشعراء "[3].

وفيما يلي تتبع لمسار النقد الجمالي والأخلاقي عند العرب في عصرهم الأموي و وقوف عند خصوصية كل بيئة نقدية من البيئات الثلاث السابقة لأن النقد هو الآخر ترعرع و نشأ في البيئات ذاتها التي احتضنت الشعر .

---

1)-النقد (سلسلة فنون الأدب العربي) الفن التعليمي : لشوقي ضيف ، دار المعارف،ط04 ،1979 ،ص:30.

2)- نفسه:ص:33.

3)- نفسه: ص:35.

1/بيئـــة الحجـــــــاز:

أ*- ابن أبي عتيق:

" وهو أول وأشهر هذه الأسماء"[1]، يرجع نسبه إلى أبي بكر الصديق، يقول عنه محمد حسن عبد الله " لقد ملأ الحجاز في عصره نقدا ظريفا لكثير من الشعراء، مع عناية أكثر بعمر ابن أبي ربيعة "[2]،يتميز بنقده اللاذع الظريف، متأرجحا تارة بين تحكيم الأخلاق، و ما تقتضيه الحشمة والعفة، و بين معيار الفن و الجمال تارة أخرى، وما يقتضيه الإبداع من تناسق،وتجانس ...

فهو مرة مع ابن أبي ربيعة، يعيب عليه خروجه عن العفة والأخلاق العربية، فيسافر إليه من المدينة ليلقاه و يعاتبه في بيت قاله [3] .

فما نلت منها محرما غير أننا * * * كلانا من الثوب المطرف لابس

بل ويطلب تبريرا لهذا المعنى، غير الموافق للأخلاق العربية، ثم لا يكتفي بهذا التبرير ليؤسس عليه حكما نقديا، وفق مبدأ أخلاقي بحت، فيقول له:"يا عاهر هذا البيت يحتاج إلى حاضنة."

ومرة أخرى يعيب عليه عدوله عن النسق الجاهلي، وخروجه عن التراث الأدبي في النسيب والتشبيب، روى صاحب العمدة في معرض حديثه عن قصيدة عمر ابن أبي ربيعة التي يقول فيها:

بينما ينعتنـــي أبصـــــــرنني * * * دون قيد الميل يعدو بي الأغـــــر

قـــالت الكبرى أتعرفـــن الفـــتى * * * قـــالت الوسطى: نعم هذا عمـــــر

قـــالت الصغرى وقـــد تيمتهـــا * * * قـــد عـــرفناه وهل يخفى القمـــــر

أن ابن أبى عتيق قال له، أنت لم تنسب بهن وإنما نسبت بنفسك، وإنما كان ينبغي لك أن تقول: قالت لي فقلت لها، فوضعت خدي فوطئت عليه[4]، وعمر إذ يصف هذا الواقع الجديد على أمثال ابن أبى عتيق، لا يعدو أن يكون مصورا لروح عصره، التـــي تغيرت فيها مفاهيم، إثر موجـــة الترف والثراء، واللهو التي اجتاحت البيئة الحجـــازية.

1)-مقدمة في النقد الأدبي: د/ محمد حسن عبد الله ،دار البحوث العلمية ، ط 1975، ص:331.

2)-نفسه: ص:331.

3)- الكامل في اللغة و الأدب: للمبرد، أبي العباس محمد بن يزيد، مؤسسة المعارف- بيروت- د.ت، 02/ 235- 236.

4)- العمدة في محاسن الشعر و أدبه و نقده: لابن رشيق، أبي علي الحسن القيرواني، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، دار الرشاد الحديثة- الدار البيضاء(المغرب)، د.ت، 124/02.

"والنساء أكثر إحساسا بالترف والفراغ"[1]، غير أن ابن أبي عتيق هذه المرة لم يحكم، والوازع الديني كما انه لم يلتفت إلى ما شاع من قيم اجتماعية، بل ركز جل نقده واهتمامه، على ذلك الأساس النقدي الجديد، الذي ابتدعه عمر وهو يتغزل بنفسه، وينسِّب بها، وكأني به يستحضر قصة الصيعرية وطرفة، ونرى ذلك واضحا في عبارته الأخيرة، فوطئت عليه"، إن الناقد يعود بوضوح إلى ذلك التصوير المغالى فيه للوعة، والصبابة و الجوى، و أن هذه الاحساسات لا تصدر إلا عن رجل، لأنه كان دائما الباحث عن المرأة ــ في البيئة الجاهليةــ حتى وإن اختلفت الأوضاع وتبدلت في الإسلام.

يقول محمد حسن عبد الله " والعجب حقا أن الذوق العربي، استمر في مطالبته للشعراء أن يحرصوا على تصوير المثال المغرق في الخضوع، وإظهار الصبابة تأصيلا لمبدأ فوضعت خدي...حتى بعد أن زاد انحراف الأخلاق، وصار الشاذ في الغلمان و الغلاميات أمرا لا ينبو الذوق عن سماعه واعتباره فنا رفيعا."[2]

ويستمر نقد ابن أبي عتيق على هذين النسقين، مع كل الشعراء الذين أتيح له نقدهم أو الذين وصلنا نقده إياهم.

فحين أنشد كُثيَر:

ولست براض من خليل بنائل * * * قليل ولا أرضى له بقليل

قال له ابن عتيق، هذا كلام مكافئ ليس بعاشق، القرشيان أقنع وأصدق منك، ليظهر جانب آخر من سمات هذه الشخصية النقدية، نقصد "قدرته على الموازنة والإحاطة بالمعاني."[3]

فبن أبي ربيعة حسب ابن أبي عتيق، أصدق و أقنع من كثير حيث يقول:

ليت حظي كلحظة العين منها * * * وكثير منها القليل المهنّا.

ووجه الصدق – ربما – في هذا البيت يرجع إلى ما يشكله الحرمان، مقارنة بلحظة العين و كأنه يتمنى إلى ما هو فيه لحظة عين خاطفة، ويعدها عطاء كثيرا لا يقدر، و ابن قيس الرقيات كذلك حيث يقول:

---

1)- مقدمة في النقد الأدبي: لمحمد حسن عبد الله ، ص: 335.

2)-نفسه: ص:335 - 336.

3)- نفسه: ص: 331.

رقيّ بعيشك لا تهجـــرينا * * * ومنينـــا المنى ثم امطليـنا

عدينا في غد ما شـئت إنا * * * نحب و إن مطلت الواعدينا

فإما تنجزي عـــدتي و إما * * * نعش بما نأمل منـك حـــينا

ولو تأملنا وجه القناعة، والصدق الذين آثرهما بن أبي عتيق، لما وجدناهما يعدوان الرضا بالقليل من اللقاء، (لحظة عين) أو حتى(وعدا ومماطلة) في مقابل الحاضر، الذي هو أسوأ حالا، ثم الصدق في تبرير هذه القناعة، والاحتجاج لها، عكس كثيّر الذي بدا شاذا عن مذهب المغالاة في الصبابة و الجوى...وكأنه يخاطب ندا أو مكافئا، لا يخشى معه انصرام حبله...وهو ما أعابه عليه مرة أخرى، عندما نسي أو تناسى مكامن جمال المرأة، و أغفل المقاييس التي من أجلها تعشق المرأة، إذ يروى أنه لما بلغ كثير قوله:

وأخلفن ميعادي وخن أمانتي * * * وليس لمن خان الأمانة دين

قال له ابن أبي عتيق أعلى الأمانة تبعتها؟ فانكف و استغضب نفسه، وصاح وقال:

كذبن صفاء الود يوم محله * * * و أنكد نني من وعدهن ديون

فقال ابن أبي عتيق: ويلك!هذا أملح لهن أدعى للقلوب إليهن.[1]

ولا شك أن العلاقة بين هذا الناقد و منقوديه تدعو، حقا للتأمل والبحث، ذالك أنها تقوم على توجيه مباشر ينتج عنه إبداع كرد فعل تلقائي، وقد رأينا كيف أن كثيرا عدل عن ما قد يسمى آنذاك خطأ فنيا، يرضي ذوق هذا الناقد الهازئ، الذي أحاله إلى مرجعية أعلى منه، و دعاه ملمحا إلى التأسي بها، فقد روي أنه قال له: "سيدك ابن قيس الرقيات كان أعلم منك، وأوضع للصواب موضعه فيهن أما سمعت قوله:

حـــب ذاك الـــدلال و الغـنج * * * والتـــي فـــي عـينـــها دعـــــج

والتـــي إن حـدثت كـذبـت * * * والتـــي فـــي وعـــــدها خـــلـــج

وترى في البيت صـــورتها * * * مـــــثل ما في الـبقعـــة الـــسرج

خـــبروني هـل على رجـل * * * عاشـــــق فـــي قبـــلة حـــــــرج.

---

1)- الأغاني: لأبي الفرج الأصفهاني، تحقيق سمير جابر دار الفكر- بيروت- ط2،دت، 108/04.

قال: فسكن كثير و استحلى ذلك و قال:لا إن شاء الله، فضحك ابن أبي عتيق حتى ذهب به."[1]إن الغضب والسكون، والاستحلاء والضحك و ما إليها من الحالات النفسية، التي تتتابع وفق العملية النقدية، بين هذا الناقد و منقوديه، تجعلنا نلتفت بحق إلى ما يبحث عنه، كل منهما... وما مدى مراعاتهما للجمال أو للأخلاق؟.. و خاصة في خضم هذا الفرق الواضح، في العواطف وتصويرهم، واللهث البين وراء" الحقائق النفسية الداخلية دون أن تمتد نظرته إلى الإيحاء العام للقصيدة بكل ما تقوم عليه."[2]

---

1)- السابق: 108/05.

2)- مقدمة في النقد الأدبي: الدكتور/ محمد حسن عبد الله، ص:338.

ب*-السيدة سكينة بنت الحسين:

تمثل سكينة المرأة وقت ذاك...وما لعبته في تلك المرحلة "في توجيه معاني الغزل كغرض فني"[1] و إن كانت تعتبر نفسها خبيرة " بسيكولوجية المرأة أو عالمها النفسي[2].
فالمرأة أدرى بأخلاق النساء، و ما الغزل في أصل نشأته إلا تألف للنساء واستجلاب لمودتهن. [3]

لكن السيدة سكينة إضافة إلى كونها امرأة، كانت على جانب كبير من الذكاء و إعمال النظر، و الحفظ والرواية و الإطلاع... مما أهلها لأن تستجلب الشعراء إلى بيتها، ثم ترضيهم بأحكامها النقدية، وتقنعهم بما تراه مجافاة للصواب، بالمقارنة حينا و بالتحليل والمناقشة حينا آخر.

وصفها مصعب ابن الزبير، وكان قد تزوجها بأنها "عفيفة سليمة برزة، تجالس الأجلة من قريش، وتجتمع إليها الشعراء وكانت ظريفة مزّاحة." [4]

لقد تشكلت في هذه الناقدة- إن صح التعبير- جملة من الصفات النفسية والعضوية، جعلتها لا تصدر إلا عن علم وثقة، بالنظر إلى محفوظاتها من الشعر، وذلك المنحى الجمالي الذي نحته.

يروى أنها وقفت على عروة ابن أذينة، في موكبها ومعها جواريها فقالت: يا أبا عامر أنت الذي تزعم أن لك مروءةوأن غزلك من وراء عفة، وأنك تقي ؟ قال نعم، قالت: فأنت الذي تقول:

قالـــت أبثثتـــها وجدي فبحت بـــه * * * قد كنت عندي تحب الستر فاستتر
ألست تبصر من حولي ؟ فقلت لها * * * غطى هواك وما ألقى على بصري

قال لها: بلى قالت: هن حرائر إن كان هذا خرج من قلب سليم، أو قالت من قلب صحيح[5].

---

1)-المرجع السابق: محمد حسن عبد الله، ص: 338.
2)- التفكير النقدي عند العرب: للعاكوب،عيسى علي ،دار الفكر المعاصر -بيروت- لبنان،79 ،ص: 99.
3)- نفسه: ص: 99.
4)- مقدمة في النقد الأدبي: محمد حسن عبد الله، ص: 338.
5)- الأغاني: لأبي الفرج الأصفهاني، 337/18.

إن هذا الحكم النقدي لم يتأت حتما دون روية، أو سابق تدبر أو تفكير، و إلا لما عرضت جواريها للعتق، ومالها للتلف، قبل أن تتبع مسار هذا الشاعر الغزلي العفيف، وما عرض لها في بيته من جنوح نحو الإباحية، التي تتعارض حسبها مع الحب الذي يعني عندها:"فكرة ومناجاة وألفة روحية "،وإن كنا نلفي من حين لآخر نوعا من التبرير غير المستساغ، كما يروى في قصة كثير حين أنشدها: [1]

أشاقك برق آخر الليل واصب...(الأبيات).

أتهب لها غيثا عاما، جعلك الله والناس فيه أسوة ؟ فقال : يا بنت رسول الله : وصفت غيثا فأحسنته أمطرته وأنبته وأكملته، ثم وهبته لها، فقالت:فهلا وهبت لها دنانير ودراهم؟..."فكثير في هذه المقطوعة كان بصدد تجريد الصورة الشعرية، وصياغتها صياغة مبتكرة دون التفات إلى الحس، وما يقتضيه المنح في دنيا البشر من مال أو متاع...لكن السيدة سكينة "لم تهتم بهذا كله، حين تحوّل في خاطرها إلى فكرة مجردة؛ فالتجريد يعني في النهاية، و دون النظر لعناء التعبير الفني، أنه وهبها شيئا حسيا محددا ليس فيه جهد."[2]

بل وتظهر استهزاء واضحا بمثل هذا الغزل، رغم أنه يوافق إلى حد ما نظرتها إلى العلاقة بين الرجل والمرأة وفهمهما للحب...

فما هو المعيار الذي كانت تتوخاه هذه السيدة إذن ؟

أهو العفة ؟...

يروى أنها أرسلت إلى جرير جاريتها، وقالت أأنت القائل:

طرقتك صائدة القلوب وليس ذا * * * حين الزيارة فارجعي بسلام

قال نعم، قالت أولا أخذت بيدها، وقلت لها ما يقال لمثلها ؟! أنت عفيف وفيك ضعف خذ هذه الألف والحق بأهلك... [3]

فكونه جارى ما تقتضيه العفة، حين رد صاحبته، واكتفى منها بما يكتفي مثله، لم يف عند السيدة سكينة بالغرض، لأن قواعد اللباقة، و مبادئ الأدب وما شاع عند العرب من مروءة وكرم، تقتضي إكرامه إياها، ومعاملتها كالضيف الطارق...

---

1)- الموشح: للمرزباني،محمد بن عمران بن موسى،نهضة مصر،1965 ، ص: 245-246.

2)- مقدمة في النقد الأدبي: لمحمد حسن عبد الله، ص: 340.

3)- الأغاني: لأبي فرج الأصفهاني، 08/ 42.

فهل كانت تحتكم إلى الجودة الفنية، والصياغة...؟

وهي التي قالت للفرزدق في سياق الخبر السابق، بعد أن أستنشد ته قوله:

هما دلتاني من ثمانين قامة * * * كما انحط باز أقتم الريش كاسره

قال: نعم، قالت: فما دعاك إلى إفشاء سرها وسرك.هلا سترت عليك وعليها ؟

إن المبدأ النقدي الذي يمكن أن يرضى به، هذا الغرض الموجز هو " إظهار اللوعة والأسى، و الإكثار من ذكر الحرق والأشواق... و يبدو أن هذا الأساس الجمالي غدا قانون الغزل الذي يحتكم إليه ناقدات ذلك العصر، ونقاده عند النظر في غزل الشعراء."[1]

وهو ما قد وجدناه سلفا عند ابن أبي عتيق، وما سنجده في نقدات عزة صاحبة كثير القليلة التي يوردها صاحب الموشح، وزهر الآداب.[2]

---

1)- التفكير النقدي: للعاكوب، ص103-104.

2)- ينظر الموشح: للمرزباني، ص: 214-215، و زهر الآداب و ثمر الألباب: للحصري، نشره د/ زكي مبارك، دار الجيل- بيروت، ط4، د.ت، 01/ 350-351.

2/بيـــــئة الـــعـــــــــراق:

لقد شكل العراق بالنسبة إلى الشام مركز المعارضة، ونواة حكم العلويين خاصة ، فإلى جانبهم شكل الخوارج بشعرائهم وزعمائهم وخطبائهم حزبا قويا، ينطلق من قاعدة دينية وعقدية متميزة، تتبنى الثورة، وتدعو إليها وتمارسها متى أتيحت لها الفرصة .

وبغض النظر عن الجانب السياسي ومانجر عنه من احتدامات ووقائع عسكرية، يمكن القول إن هذه المعارضة بشقيها الشيعي، والخارجي للأمويين خلفت "تراثا أدبيا حافلا، وهذا التراث يتميز منه أدب الخوارج بطابع القوة و الشجاعة، وروح الفداء وصدق التعبير، عن مذهبه السياسي والديني "[1] وهذا بعد أن رأينا ما كان فيه الحجازيون من تقوى وورع، وترفع عن السياسة وكلف باللهو و الغناء، وتصيد لمعاني ا لغزل وتخاصم فيه، هانحن الآن نعرض لأولى جبهات الصراع المحتدم، بين قطبين كبيرين ، شكلا تراث هذا العصر؛ العلويون (شيعة وخوارج) و الشاميون(بنو أمية).

فهل واكب الشعر هذا الصراع ؟، وما مدى مساهمة النقد في تثقيفه، أو تقويمه.؟

لا شك أن وقود الشعر العصبية، وقد وجد العراق من الوقود ما لا ينفدُ، خاصة في ظل تشجيع الأمويين للصراع القبلي، "ولما كان أكثر عرب العراق من العدنانيين، وأكثر عرب الشام من القحطانيين، فإننا نرى الصراع بين الإقليمين يرتد بفعل السياسة الأموية إلى صراع عصبيات قبلية. "[2] تجاوزهما إلى ما سواهما من الأعراق والفروع ...

كما أن العراق أضحى حاضرة كبيرة، خلصت إليها جل المواريث الأدبية والفكرية العربية، خاصة بعد أن غرق الحجاز في عزلته، ونقلت دار الخلافة إلى بغداد.

يقول محمد حسن عبد الله: "من الصحيح أن العصر الأموي قد ولى، دون أن تكون هاتان المدينتان – الكوفة والبصرة– قد اضطلعتا بدور واضح من الوجهة الثقافية، التي ستكون مرتكز النقد الأدبي و أساسه، و أن ازدهار هما ارتبط بازدهار العراق، في مجموعه حين صار مع بدايات القرن الهجري الثاني، الوريث الطبيعي للتراث الفكري والفني في الحجاز، الذي غرق في العزلة...بل ورث العراق أيضا مكانة دمشق."[3]بعد أن صارت حاضرة الدنيا، و حلم الأدباء و العلماء بمجيء العصر العباسي.

1)– تاريخ النقد عند العرب: للدكتور/عبد العزيز عتيق، دار النهضة العربية للطباعة و النشر– بيروت– لبنان، 1974، ص: 151.

2)– نفسه: ص152.

3)– مقدمة في النقد الأدبي: لمحمد حسن عبد الله، ص: 349.

ويمكن التمييز في هذه البيئة، بين صنفين من المسهمين في الحركة النقدية، على اختلاف اهتماماتهم ومشاربهم هما:

أ*- الشعـــــراء:

إن الحديث عن إسهام الشعراء الأمويين، في ما كان دائـرا مـن ممارسـة نقدية، يعود بنا إلى الحديث عن نمط واضح من الشعراء؛ الشعراء الـذين لزمـوا البادية بكل ما تمثله من حفاظ على العادات الجاهلية، والمواريث العربية الأصيلة، مع شيء من الأسلمة التي لا تكاد تلاحظ، فقد ظل هؤلاء الشعراء الفحـول"مـن صميم أعراب البوادي، فيها نشئوا وبها أقاموا طوال حياتهم، فالفرزدق كان يقـيم في بادية البصرة، وجرير في بادية اليمامة، الأخطل في بادية بني تغلب، وكـذلك كان الراعي، وذو الرمة، والقطا مي لا يعدلون بالبـــادية شيئا"[1]لكن ماذا يعنـي ارتباطهم بالبـادية؟.

خاصة في ظل هذا العصر الذي تطاحنت فيه الآراء والأفكار والمذاهب ؟.

ولماذا كانوا إذا جد ما يستدعي رحلتهم إلى المدن و الحواضر، ألموا بها إلماما ثم أسرعوا عائدين إلى البادية، حيث يستأنفون حياتهم التي لا تزال تغلب عليها التقاليد الجاهلية، من لهو وشراب و مهاجيات وعصبيات..."[2]

لقد شكلت البادية فضاء خصبا، وموطنا مثاليا، لكل ما ورثوه من شعر، خاصة ذلك الشعر الذي يمجد الأطلال ويصف الراحلة، ويتبع أبعار المطايا، ذلك الشعر الذي يقوم على العصبية القبلية، ويرتكز على "كثرة الغريب من الألفاظ والمحافظة على النظام الجاهلي للقصيدة، في ديباجتها ومعانيها وخيالها البدوي القديم."[3]، وحتى الهجاء المفضي إلى الفحش، والإقذاع والتعرض للحرمات.

---

1)- تاريخ النقد عند العرب: لعبد العزيز عتيق:ص: 152.

2)-نفسه:ص:152.

3)-نفسه: ص:153.

لقد وجد هؤلاء الشعراء إذا في البادية حضنا رؤوما، وثديا لا ينضب معينه، ربى فيهم كل هذه الخصائص الفنية، التي توارثوها سماعا، لذلك كان الهجاء على مذهب زهير"ومن لا يظلم الناس لا يظلم" أرقى أغراضهم، ولكم يحزن الشاعر إذا لم يوفق في معنى هجائي، أو إذا رمي بقصوره في هذا الفن؛ يقول عبد العزيز عتيق:" ومن شعراء هذا العصر-الأموي-من كان يرضيه أن يحكم له بالتفوق في الهجاء، على أن يحكم له بالتفوق في أي فن من فنون الشعر الأخرى. "[1]

و يقول العاكوب:"ويتراءى أن الهجاء من الأغراض، التي يحسبون لها حسابا كبيرا عند تقدير الشاعر وبيان منزلته، ...ويبدو أن الاحتفاء بالهجاء، أكثر من غيره مرجعه إلى قدرة الهجّاء على إيلام المتعرضين له."[2]

ومما يؤيد هذا المذهب، الخبر الذي رواه صاحب الموشح، عن الفرزدق و ذي الرمّة، و سؤال هذا الأخير الفرزدق عن عدم عده من الفحول، فقال له: "لتجافيك عن المدح والهجاء، واقتصارك على الرسوم والدّيار."[3]

فهذا ذو الرمة، أحد مجيدي هذا العصر، يقصر عن بلوغ مرتبة الفحول، لا لشيء إلا أنه لا يرد سهام الهاجين، و لا يحسن إيلام المتعرضين، و إن برع و أجاد في ما سوى ذلك.

إن هذه البيئة بالفعل تلتصق التصاقا غريبا بالنمط الجاهلي، اجتماعيا و أدبيا؛ فانظر إلى عبد الملك بن مروان – مثلا- يخاطب العجاج كما ورد في الشعر و الشعراء [4]:" إنك لا تحسن الهجاء"، فأجابه الشاعر " إن لنا أحلاما تمنعنا من أن نظلم، و أحسابا تمنعنا من أن نظلم، و هل رأيت بانيا لا يحسن أن يهدم".

وواضح أن هذا الحوار ما كان ليدور في بيئة دينها الإسلام، الذي حرّم كل أشكال إيذاء الغير، و هو ما جسده شعراؤه آنفا، من التزام بمبادئهوتمثيل لرسالته.

---

1)- السابق، ص:158.

2)- التفكير النقدي عند العرب: للعاكوب، ص: 83.

3)- الموشح: للمرزباني، ص:228.

4)- الشعر والشعراء: لابن قتيبة:تحقيق الشيخ محمد عبد المنعم العريان، دار إحياء العلوم، بيروت، ط3، 1987، ص: 595.

فلا سؤال الخليفة، ولا جواب الشاعر، يوحيان باعتبار المنظور الديني، في قول الشاعر...فالعجاج لا يقول الهجاء، لأنه كشعراء الجاهلية، ذو حسب و حلم، يمنعانه من التعرّض للغير، و عبد الملك لا يهمه إلا أن يسمع شعرا في غرض، لم يألفه عند هذا الشاعر، حتى يمكنه الحكم عليه بعدها... و حتى استدلاله كان منطقيا غير خاضع لسلطان الدين، كما أن هذا الخبر يذكرنا فعلا بمعنى الالتزام في الجاهلية، و ثلاثيته(الولاء للقبيلة، الفروسية و المروءة.)[1]

لقد شكل الهجاء إذا، أحد المعايير الأساسية التي تؤخذ بعين الاعتبار عند الحكم على الشاعر، كما شكل الغزل من قبل عند الحجازيين أهم منطلقات الحكم النقدي... و قد يكون مرد ذلك إلى الظروف الاجتماعية و السياسية، التي غالبا ما يتولد عنها ظرف أدبي متجانس، يؤيد ذلك ما رأيناه في الحجاز من تتبع للغزل، وفقا لما ضرب عليها من عزلة، و ما نراه في العراق من إعلاء لمكانة الهجاء، تبعا لتلك الصراعات المختلفة، التي لم يكن العربي ليقف إزاءها موقف المتفرج، يروي صاحب الأغاني[2] أن الحجّاج لما لقي جريرا قال له:("يا عدو الله علام تشتم الناس و تظلمهم"؟فقال جرير:"جعلني الله فداء الأمير، و الله إني ما أ ظلمهم، ولكنهم يظلمونني فأنتصر، مالي ولابن أم غسان ؟... ثم عدهم واحدا واحدا، وأخذ يعلل و يعتذر بأن الهجاء لم يكن من طبعه، و لكنه حيلة من لا حيلة له، و سلاح من بغي عليه، حتى قال الحجاج بعد انصرافه (قاتله الله أعرابيا إنه لجرو هراش) أي أنه مقاتل وثاب... بل إن خبرا يرويه صاحب الأغاني، يجعل الخليفة والمجتمع بأسره، في حالة من الذعر لا تتصور لأن شاعرا كالفرزدق قدم عليهم زمن جدب و قحط، "حتى مشى أهل المدينة إلى عمر بن عبد العزيز فقالوا له:أيها الأمير إن الفرزدق قدم مدينتنا في هذه السنة الجدبة...وليس عند أحد منهم ما يعطيه، شاعرا فلو أن الأمير بعث إليه فأرضاه، وقدم إليه ألا يعرض لأحد بمدح ولا هجاء، فبعث إليه عمر:إنك يا فرزدق قدمت مدينتنا هذه السنة الجدبة...و قد أمرت لك بأربعة آلاف درهم، فخذها ولا تعرض لأحد بمدح ولا هجاء فأخذها الفرزدق."[3]

---

1)- ينظر كتاب الالتزام في الشعر العربي: لأحمد أبو حاقة،دار العلم للملايين-بيروت- لبنان 1979،ص: 64-103.

2)- الأغاني:لأبي الفرج الأصفهاني، 32/08.

3)- نفسه: 404/10-405 و404/21.

فهل إلى هذا الحد بلغ تحكم هذا الغرض في رقاب الناس ؟

إن هذا الحديث حول هؤلاء الشعراء، وبما عدوا شعراء، هو في الواقع من قبيل الإشارة إلى أهم ما ميز الحركة النقدية في العراق...نفى ذلك الطابع العام، والاتجاه الغالب؛ "المتمثل في التفضيل أو المفاضلة بين الشعراء بوجه عام، و بين الفحول الثلاثة:الفرزدق، و جرير والأخطل بوجه خاص."[1] هؤلاء الثلاثة الذين بنى عليهم ابن سلّام فكرة الطبقات[2] "أعطوا للنقد بشعرهم مادة وفيرة، يدور حولها الخلاف والجدل في الأندية العامة و المجالس الخاصة." [3]

غير أن هذا لم يمنع من مشاركتهم في الحكم على بعضهم البعض حينا، وعلى أنفسهم حينا آخر.فقد رأينا كيف حكم الفرزدق على شعر ذي الرمة، وعده شاعرا لولا إكثاره من غرض على حساب غرض ...وفيما يلي هذا الحكم النقدي الذي يصدره الأخطل على المستوى الشعري لكل من الثلاثة.

روى أنه سئل[4]:" أيكم أشعر ؟فقال:أنا أمدحهم للملوك، و أنعتهم للخمر، و الحمر- يعني النساء- وأما جرير فأنسبنا و أشببنا، و أما الفرزدق فأفخرنا"، ففي هذا الحكم النقدي العام الذي يمثل ذروة كل شاعر، و تفوقه يحجم الأخطل عن الانتصار لأي منهم في غرض الهجاء...لسبب واضح جدا، هو ما يشكله هذا الغرض من دلالة على شاعرية مجيدة ،من جهة، و ما قد يتعرض له من نقد و ربما سب وشتم من جهة أخرى...أو قد يكون لشعوره - الأخطل- بتفوق صاحبيه و إياه، وتبحرهما في الهجاء، و تنازع الناس فيما سوى ذلك. كما يورد صاحب الطبقات حكما آخر يقر فيه جرير بشاعرية الأخطل فيقول:"لقد أعنت عليه بكفر، و كبر سن و ما رأيته إلا خشيت أن يبتلعني. "[5]

ولا شك أن الأسباب التي قدمها جرير، توحي بمدى ما كان يبذله من جهد في سبيل إقرار هذا المبدأ الأخلاقي (بكفر)، نظرا لقلة اكتراث المجتمع به، من جانب، وعدم اعتباره.

---

1)- تاريخ النقد عند العرب: لعبد العزيز عتيق، ص: 161.

2)-التفكير النقدي عند العرب: للعاكوب، ص:82.

3)- تاريخ النقد عند العرب: لعبد العزيز عتيق، ص: 161.

4)- الشعر والشعراء: لابن قتيبة، ص: 474.

5)- طبقات فحول الشعراء: لابن سلام الجمحي،تحقيق محمود محمد شاكر، دار المدني -جدة- ط1، 1982، ص: 487.

عند إطلاق الأحكام النقدية من جانب آخر، خاصة إذا تعلق الأمر بالهجاء...[1]

و لعل أبرز الأحكام النقدية التي تطالعنا بها كتب الأدب، تدور في فلك المفاضلة" أو التفضيل" على اتساع حينا في الدائرة الزمنية والمكانية، وضيق حينا آخر، وبالنظر إلى تعدد الأغراض وتنوعها عند شاعر واحد، فقد ترتعد فرائص الفرزدق و يتضور و يجزع إذا أنشد شيئا لجرير، كما يذكر ابن سلام [2]، لكنه إذا سئل عن أشعر أهل زمانه كما حدث مع عبد الملك، قال:"أنا يا أمير المؤمنين: قال ثم من:"قال غلام منا بالبادية يقال له ذو الرمة، ثم دخل جرير فقال مثل ذلك."[3]

فالحكم النقدي السابق الصادر عن شاعرين فحلين، قد يفقد مصداقيته إذا تعلق الأمر بإطار زماني أوسع.

فهذا عكرمة ابن جرير يسأل أباه عن أشعر الناس في رأيه فيقول له: "الجاهلية تريد أم الإسلام، قلت أخبرني عن الجاهلية، قال شاعر الجاهلية زهير، قلت في الإسلام، قال نبعة الشعر الفرزدق، قلت فالأخطل، قال يجيد صفة الملوك، ويصيب نعت الخمر، قلت فما تركت لنفسك قال دعني فإني بحرت الشعر بحرا. [4]

كما ورد في خبر ثان، أن عبد الملك أو الوليد-ابنه-سأل جريرا عن أشعر الناس، فقال: ابن العشرين...قال ما رأيك في ابني أبي سلمى، قال: كان شعرهما نيرا يا أمير المؤمنين، قال فما تقول في امرئ القيس، قال: اتخذ الخبيث الشعر نعلين، وأقسم بالله لو أدركته...

قال فما تقول في الفرزدق، قال:في يده والله يا أمير المؤمنين نبعة من الشعر قد قبض عليها...ثم يحكم لنفسه فيقول إني لمدينة الشعر...[5]

فجرير في هذين الخبرين يذكرنا بالأحكام النقدية الجاهلية، التي كان يصدرها الناقد عامة غير معللة.

فأشعر الناس طرفة وامرؤ القيس، الذي انتعل الشعر ومشى به، وهي إشارة إلى سمة وسم بها هذا الشاعر دون غيره، وهي تمكنه و اجتراؤه على فن القول، وتحكمه بنواصيه.

---

1)- ينظر الأغاني: لأبي الفرج الأصفهاني، 352/07.

2)-طبقات فحول الشعراء: لابن سلام الجمحي، ص: 377.

3)- الموشح: للمرزباني، ص: 302.

4)-الأغاني: لأبي الفرج الأصفهاني، 38/08.

5)-ينظر نفسه:58/08.

لا كغيره من عبيد الشعر، حتى يخلص إلى الفرزدق، الذي أمسك عنده نبعة من نبعات الشعر، والنبعة واحدة نبع، شجر جبلي تتخذ منه القسي؛ إشارة إلى تأصله وأخذه بمجامع الشعر، ومما يلفت انتباهنا هنا، هو إصرار جرير على طبع الفرزدق وشعره بهذا الحكم (نبعة)، والتي لا تنبت إلا في قمم الجبال، ولا تتخذ إلا للقسي...فمنه يرمى وإليه يرتقى، ليجعل منه في الأخير، ومن أمثاله بعض مظاهر مدينته.

و الملاحظ أن هذه الأحكام النقدية كان يصاحبها التعليل كلما ضاقت دائرتها زمنيا ومكانيا، حتى بلغت ذروتها عند تعلق الحكم بالذات....فجرير مدينة الشعر وبحر الشعر بحرا لأنه قال في شتى الفنون، وطرق كل الأغراض وأجاد عكس سواه...فقد مدح فأسنى، وزجر فأخاف وردع، وافتخر فأعلى، وشبب فأطرب..."وكل واحد منهم قال نوعا واحدا فقال الخليفة:صدقت. (1)

إن مفهوم النقد عند شعراء العراق يحتاج حقا إلى وقفة متأنية، تتناول ما قد يبدو للقارئ من تناقض في أحكامهم النقدية، خاصة تلك المتعلقة بتفضيل شاعر عن آخر...غير أن مجال بحثنا يقصر عن ذلك...مؤثرين الحديث عن نصيب الرواة والنحاة من هذه الحركة النقدية.

---

1)-ينظر الأغاني: لأبي الفرج الأصفهاني،58/08.

ب*-النحـــــاة والـــرواة:

يمثل النشاط اللغوي و الروائي الذي كان على مشارف كل من البصرة والكوفة قمة النقد الذي مارسه النحاة والرواة على الشعراء، فالبصرة ومشارفها -خاصة -كانت تعرف نشاطا لغويا طاغيا في حين كانت الكوفة كما يقول شوقي ضيف مشغولة حتى منتصف القرن الثاني الهجري بقراءات الذكر الحكيم ورواية الشعر والأخبار[1]وقد قامت هذه الحركة النقدية على اتجاه غير معهود في النقد العربي، نقصد به الاتجاه اللغوي فقد شهدت "البصرة ميلاد اتجاه نقدي يتخذ اللغة أساسا للنقد والتقويم، يبدأ هذا الاتجاه بعبد الله ابن أبي إسحاق الحضرمي الذي يمثل بداية مرحلة تقعيد النحو." [2]

وقد شكلت ملاحظاته، النحوية بداية إيذان بظهور اتجاه جديد في النقد العربي، من جهة، وبداية سلطة جديدة لهذه الطبقة التي بدأت تظهر في المجتمع العربي، وتأخذ مكانها بجدارة رغما عن بعض الساخطين عليها، من جهة أخرى.

لقد أكثر أبو إسحاق الحضرمي ملاحقة الفرزدق، حتى ضاق به ذرعا بعد كثرة ملاحظاته و تنغيصا ته، ولاسيما تلك التي كانت تحط من مقدرته أمام جمهوره حتى استحق هجاءه.

فقد أنشد الفرزدق قصيدته التي مطلعها" عزفت بأعشاش و ما كدت تعزف، فلما أتى على قوله: وعض زمان يا ابن مروان لم يدع * * * من النار إلا مسحتا أو مجلف

فقال ابن إسحاق على أي شيء رفعت مجلف، قال: على ما يسوؤك وينوؤك علينا أن نقول وعليكم أن نعربوا "ثم ذكر المزرباني أن الفرزدق قال:

لو كان عبد الله مولى هجوته * * * ولكن عبد الله مولى مواليا.

ورغم سلطان الشاعر الذي كان يخشاه الشعراء أنفسهم إلا أن تزمت أو ظرف هذا النحوي امتد ليطال البيت نفسه، إذ يروى أن أبا إسحاق قال له، وقد لحنت أيضا.كان يجب أن تقول موال." [3]

---

1)- المدارس النحوية: لشوقي ضيف، دار المعارف- مصر- ص:20.

2)- مقدمة في النقد الأدبي: لمحمد حسن عبد الله، ص: 352.

3)- الموشح: للمرزباني، ص: 156-161، ونزهة الألباء في طبقات الأدباء: لابن الأنباري، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار نهضة مصر للطباعة و النشر- مصر- د.ت، ص: 20.

ويبدو أن النحاة وجدوا في شعر الفرزدق مادة خصبة، فقد كان على حد قول ابن سلام: " يداخل في الكلام وكان يعجب أصحاب النحو" [1]، ويقول يونس ابن حبيب الثقفي:" لولا شعر الفرزدق لذهب ثلث اللغة." [2]

وممن أدركوا على الفرزدق أيضا " ودخلوا ميدان النقد في هذا العصر: يحي ابن يعمر البصري، وعنبسة الفيل ...وأبو عمرو ابن العلاء"[3]، بالإضافة طبعا لابن أبي إسحاق الحضرمي.

ولم يكتف هؤلاء بالشعراء المعاصرين لهم فقط، بل امتد نقدهم حتى العصر الجاهلي ،إذ يروى أن أبا إسحاق خطأ النابغة في قوله :

فبت كأني ساورتني ضئيلة * * * من القش في أنيبها السم ناقع

ورأى أنها يجب أن تكون في- غير الضرورة- ناقعا. [4]

بل وطال نقدهم حتى الولاة ففي سبب نفي يحي بن يعمر البصري انه نزولا عند مسألة الحجاج في تقويم كلامه، قال : " نعم ، تلحن في كتاب الله."قال:"ذلك أسوأ ففي أي حرف من كتاب الله قال :قرأت قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم (الآية) فرفعت أحبّ وهو منصوب فغضب الحجاج وقال لا تساكنني ببلد أنا فيه ونفاه إلى خراسان." [5]

غير أن نقد النحاة لم يكن بهذه السذاجة، والسطحية كما يبدو، فقد أرسوا نقدهم على ما أحاطوا به من دقائق اللغة و أصول النحو وأعاريض الشعر، وما يجوز فيها وما لا يجوز فكانوا بهته الثقافة العربية ينظرون في الشعر فيصوبون ويخطئون و يقومون ويعدلون.[6]

ولو أن بعضهم كان يتصيد الأخطاء من أجل الانتصار لشاعر على آخر كما يروى عن عنبسة الفيل الذي مع علمه باللغة والنحو وبصره بالأدب يروي شعر جرير ويتتبع شعر الفرزدق ويخطئه ويلحنه. [7]

---

1)- الأغاني: لأبي فرج الأصفهاني، 10/309-310.

2)- ينظر نفسه: 15/19.

3)- تاريخ النقد عند العرب: لعبد العزيز عتيق، ص:181.

4)- الموشح: للمرزباني، ص: 50، كما ينسب لعيسى بن عمر، ينظر: مقدمة في النقد الأدبي: لمحمد حسن عبد الله ص23.

5)-معجم الأدباء: لياقوت الحموي، تحقيق: أحمد فريد رفاعي، مطبعة دار المأمون، القاهرة، د.ت، 20/42-43.

6)- تاريخ النقد عند العرب: لعبد العزيز عتيق، ص: 181.

7)-ينظر نفسه: ص:182.

ويمكن أن تتلخص معايير أحكامهم النقدية التي ارتضوها لمذهبهم في صحة الشعر وقلة زلل صاحبه ، فقد كان أبو عمرو ابن العلاء كما روى الأصمعي :" يشبه الأخطل بالنابغة لصحة شعره." (1)

وقد يضيفون أسبابا أخرى، كأن يكون مكثرا للقصائد الطوال الجياد كما هو الحال مع الأخطل مما يوحي عندهم بإحاطة الشاعر باللغة ومفرداتها، أو أن يكون منقحا لشعره مهذبا له. (2)

ومن المسهمين كذلك في الحركة النقدية لهذه الفترة، الرواة، وهم فئة اشتغلت بحفظ الأخبار وروايتها، وكان في مقدمتهم، رواة الشعر، و ما يعين على فهمه ويعد حمادا الراوية من أبرزهم، يطالعنا الأغاني بحكم نقدي بارز لهذا الراوية، حول شغل عصره الشاغل، فيقول: "كان حماد يفضل الأخطل على جرير و الفرزدق فقال الفرزدق إنما تفضله لأنه فاسق مثلك، فقال: لو فضلته بالفسق لفضلتك."(3)

وفي خبر ثان أن حمادا الراوية قال :" أتيت الفرزدق فأنشدني ثم قال: هل أتيت الكلب جريرا قلت: نعم قال أفأنا أشعر أم هو ؟ فقلت: أنت في بعض الأمر وهو في بعض فقال:لم تناصحني فقلت: هو أشعر منك إذا أرخى من خناقه و أنت أشعر منه إذا خفت أو رجوت فقال: وهل الشعر إلا في الخوف والرجاء وعند الخير والشر. (4)

فالحكم الأول وإن بدا أقرب إلى أحكام الجاهليين غير المعللة، إلا أنه يميط اللثام عن بعض المعايير النقدية لدى كل من الشعراء والنقاد من الرواة فاعتراض الفرزدق على الحكم ما كان ليكون لو أن قائله غير حماد، وقد رأينا ذلك مع طبقة النحاة مثلا...أو كما سنرى ذلك مع الخلفاء مما يؤيد تلك النظرة التي كانت شائعة لدى النحاة من أن الإخباريين والرواة لا رأي لهم أو لا علم لهم ولا بصر بالشعر لأن فعل الإخبار يقتضي التكرار والعرض، لا النظر والتمحيص والتدبر ومن ثم النقد المصيب " أما آراء النقاد وأحكامهم فلا يحترمونها لقلة علمهم وعدم فصاحتهم. (5)

---

1)الأغاني: لأبي الفرج الأصفهاني، 297/08.

2)- تاريخ النقد عند العرب: لعبد العزيز عتيق، ص:185.

3)-الأغاني: لأبي الفرج الأصفهاني، 350/07.

4)-نفسه:94/7.

5)-تاريخ النقد عند العرب:لعبد العزيز عتيق، ص: 185

بالإضافة إلى دعوة الفرزدق حمادا إلى تحكيم المعيار الديني الأخلاقي، وما يقتضيه من حكم نقدي، ورفض هذا الأخير واستدراكه اللطيف عليه.

بينما يظهر الخبر الثاني روحا نقدية ثاقبة نقدية لدى حماد، وذكاء حادا، وإحاطة واسعة بشعر كل من الثلاثة فقد أجرى مفاضلة خاطفة متجنبا الأخطل، ومرضيا الفرزدق وجرير ولعل السبب في ذلك هو امتهانه للرواية التي قد تتعارض مع الجزم بالحكم بسبب ما قد تخلفه من عداوات، الراوي في غنى عنها، وتقصي الأخبار أو فقدان مصادرها حجة على الراوي لا له، لذلك فهم يجعلون جريرا شاعر العامة المقدم، والفرزدق شاعر الخاصة[1]وإن كان أبو عبيدة قد جمع حجج من فضل جريرا فقال:"يحتج من قدم جريرا بأنه كان أكثرهم فنون شعر، وأسهلهم لفظا، وأقلهم تكلفا وأرقهم نسيبا وكان دينا عفيفا."

وهو خبر إن صح يستدعي الالتفات لما تضمنه من "موازنة بين جرير وقرينيه في جوانب متعددة من الشعر، متصلة بفنونه وألفاظه وبالأصالة الشعرية والعاطفة والأخلاق[2] فهو إلى جانب إكثاره من فنون الشعر، وطبعه ،ورقة غزله ونسيبه كان دينا عفيفا متورعا ،ولعلهم لجأوا أخيرا إلى الحكم لجرير انطلاقا من العفة لما لمسوه من تقارب مستوى هؤلاء الثلاثة .

وقد أجمل أبو الفرج الأصفهاني آراء القدماء في ثلاثي العصر الأموي بقوله:"والفرزدق مقدم على الشعراء الإسلاميين هو وجرير والأخطل ومحله في الشعر أكبر من أن ينبه عليه بقول ...وقد تكلم الناس في هذا قديما وحديثا وتعصبوا واحتجوا بما لا مزيد فيه واختلفوا بعد اجتماعهم على تقديم هذه الطبقة.[3]، ثم ذكر أن المائل إلى الكلام السمح المطبوع يقدم جريرا، والمعجب بالكلام الجزل الفخم يؤثر الفرزدق.

هذه صورة النقد في العراق، وما كان من أحكام ناقديها، أوردناها مجملة لنبين بها الاتجاهات الرئيسة و أهم ما عرض من القضايا النقدية، وقد رأينا كيف أن المفاضلة أخذت شأوا عاليا، و كادت أن تكتمل صورة الموازنة لولا تلك الأحكام العامة التي تابعت روح العصر إجمالا، و اكتفت بالحكم النقدي الانطباعي غير المعلل.

---

1)-الأغاني: لأبي الفرج الأصفهاني، 08/83-84.

2)- تاريخ النقد عند العرب: لعبد العزيز عتيق.ص: 156.

3)-ينظر الأغاني: لأبي الفرج الأصفهاني،10/396-367.

أو القصور عن المعاني الكلية و الانسياق وراء معان جزئية و كذا نلحظ ذلك الاهتمام الواضح بالسرقات التي ستشكل فيما بعد أهم القضايا النقدية.

كما حاول بعض النقاد أن يكون موضوعيا، متجردا عن هواه و عصبيته، كالنحاة مثلا، و بعض الرواة، متبعا الحكم بتعليل قد يبدو مقنعا، غير أن اكتمال الشخصية الناقدة، لم يتأت في هذا العصر.

هذه بإجمال أهم مظاهر الحركة النقدية ببيئة العراق أيام بني أمية، ما عدا بعض علماء الخوارج وزعمائهم كعاصم بن الحدثان، الذي يروي له صاحب العقد الفريد خبرا مع الفرزدق[1] وإن كانوا –الخوارج– في الحقيقة، ينسجون على غير منوال عصرهم، ويستندون إلى ما سوى مقاييس نقاد بيئتهم، فهم لا يقدرون المادحين الناس مهما علا فنهم لأنهم في نظرهم شعراء الكافرين أما شعراؤهم فشعراء المؤمنين ،وعلى هذا فهم يقدرون الشعر ويزنونه بميزان الدين والأخلاق،لا بالميزان الفني. [2]

---

1)–العقد الفريد: لابن عبد ربه، تحقيق: أحمد أمين و آخرين، دار الكتاب العربي– بيروت– 1982، ص: 189.

2)–تاريخ النقد عند العرب: لعبد العزيز عتيق، ص: 189.

أو القصور عن المعاني الكلية و الانسياق وراء معان جزئية و كذا نلحظ ذلك الاهتمام الواضح بالسرقات التي ستشكل فيما بعد أهم القضايا النقدية.

كما حاول بعض النقاد أن يكون موضوعيا، متجردا عن هواه و عصبيته، كالنحاة مثلا، و بعض الرواة، متبعا الحكم بتعليل قد يبدو مقنعا، غير أن اكتمال الشخصية الناقدة، لم يتأت في هذا العصر.

هذه بإجمال أهم مظاهر الحركة النقدية ببيئة العراق أيام بني أمية، ما عدا بعض علماء الخوارج وزعمائهم كعاصم بن الحدثان، الذي يروي له صاحب العقد الفريد خبرا مع الفرزدق[1] وإن كانوا –الخوارج– في الحقيقة، ينسجون على غير منوال عصرهم، ويستندون إلى ما سوى مقاييس نقاد بيئتهم، فهم لا يقدرون المادحين الناس مهما علا فنهم لأنهم في نظرهم شعراء الكافرين أما شعراؤهم فشعراء المؤمنين ،وعلى هذا فهم يقدرون الشعر ويزنونه بميزان الدين والأخلاق،لا بالميزان الفني.[2]

---

1)–العقد الفريد: لابن عبد ربه، تحقيق: أحمد أمين و آخرين، دار الكتاب العربي– بيروت– 1982، ص: 189.

2)–تاريخ النقد عند العرب: لعبد العزيز عتيق، ص: 189.

3/النقد في بيئة الشـــام:

تشكل الشام دار الخلافة، ومعقل الحكم الأموي الذي أرسى دعائمه، الخليفة الأول معاوية بن أبي سفيان، وإذا قارنا بين حال الشعر والنقد في كل من بيئتي الحجاز والعراق، و بيئة الشام، في هذا العصر، وجدنا فرقا شاسعا، فعلى نقيض ما رأيناه من نشاط و حركية في العراق – مثلا – تكاد الشام لا تعبر عن مطمح الباحث عن النقد و الشعر– خاصة–في ظل بيئة من المفترض أن تكون بيئة مثالية لهذا العصر " ففي العراق نرى حركة شعرية نشيطة، ونستطيع أن نعد عشرات من الشعراء الممتازين، على حين نرى بيئة الشام مقفرة من الشعراء إلا من شاعر كعدي بن الرفاع العاملي." [1]

ولعل أهم ما يميز الشام عن غيرها، هو ما شهدته من وفود من شتى أصقاع الدولة الإسلامية، مهنئة حينا، و مستجدية حينا آخر، مما حفظ بعض ماء وجه النقد، الذي ظل حكرا على فئة تستدعي حقا الوقوف عندها، أقصد فئة الخلفاء...

هذه الفئة التي لم تكتف بإصدار بعض الأحكام النقدية على من كان يطرق بابهم لتضيف رصيدا إبداعيا ساهم في إذكاء و إرساء معالم نقدية معينة كيزيد ابن معاوية الذي حكم للشعر الحجازي و استقدمه، وطلب الغناء وأدخله على مجالسه و أشاع اللهو و الشراب و أظهره بين الناس[2]ومثله يزيد ابن عبد الملك والوليد ابنه[3] ولذلك سنحاول في هذا المبحث أن نقف عند أهم خلفاء الدولة الأموية ومشيدي أركانها، وطابعي حكمها بادئين بخليفتها الأول معاوية:

1–تاريخ النقد عند العرب، لعبد العزيز عتيق، ص:191.

2– مروج الذهب و معادن الجوهر: للمسعودي، دار الأندلس، بيروت، ط5، 1983، 77/3.

3– نفسه:210/3.

أ*- معاوية ابن أبي سفيان: (41هـ-60هـ)

يعتبر معاوية ابن أبي سفيان " أول من استأثر بالخلافة ليقرها في البيت الأموي" [1]وقد أقام دولته على العصبية بكل ما تعنيه علوا وسفلا"عصبية للعرب ضد العجم،والموالي،وعصبية لليمنية على القيسية ، وعصبية لبني أمية على بني هاشم، وعصبية للقبائل الموالية لهم على المناوئة .."[2]كما عزا بالجاحظ أن يقول: "الدولة الأموية عربية أعرابية " وإلى جانب ذلك فقد كان معاوية ذا شخصية مميزة، مما أهله لتمثيل الفرع السفياني، على غرار عبد الملك الذي أسس كيان الفرع المرواني في ما بعد و مثله ونلاحظ لديه اهتماما بالغا بالشعر وربطه بالسياسة وجعله من أنجع الأسباب الموصلة للسيادة ففي العمدة أنه قال: يجب على الرجل تأديب ولده والشعر أعلى مراتب الأدب."[3]إن كان يصدر عن مبدأ أخلاقي لا يكاد يحيد عنه في الغالب و هو ينتقي الشعر الحسن أو يستشهد به ويروي صاحب العمدة[4]أن لهذا المذهب عنده دافع تاريخي يشبه إلى حد بعيد تمثل الجاهلي لتأثير الشعر،وما كان يشحذه به الشاعر من شجاعة وإقدام و مروءة .

فمعاوية يحث جلساءه على روية الشعر وتلقينه للناشئة إذ يقول:" اجعلوا الشعر أكبر همكم وأكثر دأبكم" فلقد رأيتني ليلة الهرير - بصفين - وقد أوتيت بفرس أغر محجل بعيد البطن من الأرض و أنا أريد الهرب لشدة البلوى فما حملني على الإقامة إلا أبيات عمرو بن الإطنابة:

أبت لي همتي و أبـــى بلائي * * * وأخذي الحمـــد بالثمن الربيح
و إقحامي على المكروه نفـسي * * * وضربي هـامة البطل المشيح
وقولي كلما جشأت وجـــاشت * * * مكانـــك تحمدي أو تستريحي
لأدفع عن مـآثر صـــالحات * * * وأحمي بعد عن عرض صحيح.

---

1)-أدب السياسة في العصر الأموي : لأحمد محمد الحوفي، دار القيم- بيروت - لبنان د.ت،ص: 20 .

2)- نفسه: ص: 25، أنظر الفصل الخامس منه .

3)-العمدة: لابن رشيق 01/ 29.

4)- نفسه: 29/01.

لأنه وجد فيه مشحذا ساعة طلبه، كما يدل هذا الخبر على مفهوم معاوية لدور الشعر، وتحديده الدقيق لمصطلحة، فهو عنده عامل بان في الشخصية (شخصية المتلقي) يرتفع بها، ويسمو على الصفات الدنيئة، كما أنه يعرب عن فهمه للشعر، الذي هو أسمى درجات الأدب، فالشعر المقصود بالحكم، هو الشعر الباعث على الشجاعة، المقوي للنفس، المنمي للصلابة و الجلد، لا سواه... ويستمر هذا الفهم الأخلاقي للشعر، عند معاوية، ويتطور ليأخذ منحى آخر، يتجاوز البيت أو البيتين، والمقطوعة... وحتى القصيدة، إلى الغرض الشعري...

"فالشعر الذي يبني الإنسان منطقا وفكرا و ينمي فيه روح الاعتزاز والأنفة مما يطرب له معاوية ويحث على تعلمه ويثيب عليه. (1)

فقد " دخل الحارث ابن نوفل بابنه عبد الله على معاوية، فقال: ما علمت ابنك؟ قال: القرآن و الفرائض، فقال: روّه من فصيح الشعر، فإنه يفتح العقل، ويفصّح المنطق ويطلق اللسان ويدل على المروءة والشجاعة (2)

فالشعر طريق عند معاوية إلى نيل المحامد، ودليل عليها ...و لكن أي شعر ؟.

إنه الشعر الفصيح الذي يغذي العقل، ويفتحه، والمنطق و يفصحه و اللسان و يطلقه، وينتج المروءة و الشجاعة، أو يدل عليهما...

فالفصاحة لا تعني عنده الوقوف على مستوى شكلي لا تعدوه...و إنما هي الظهور و الإبانة، سواء أتعلق الأمر باللسان، أو العقل، أو حتى تعداهما إلى التمييز بين الخير والشر و إبانته...

ويتوالى هذا الحث على استنشاد "الشعر" بمفهومه السابق، و طلبه و جعله أكبر هموم النفس عند معاوية...ليصل إلى ذروته وهو ينصح عبد الرحمان ابن الحكم قائلا:" يا بن أخي إنك شهرت بالشعر فإياك والتشبيب بالنساء فإنك تفرّ الشريفة في قومها والعفيفة في نفسها، والهجاء فإنك لا تعدو أن تعادي كريما أو تستثير لئيما و لكن افخر بمآثر قومك وقل من الأمثال من توفر به نفسك وتؤدب به غيرك."(3)

---

1)- التفكير النقدي عند العرب: للعاكوب، ص: 65.

2)- الأغاني:لأبي الفرج الأصفهاني، 234/16.

3)- العقد الفريد: لابن عبد ربه، 05 /281.

فالتشبيب و الهجاء حسب معاوية أغراض منحطة، يجب على النفس الكريمة، مبدعة، أو متلقية أن تتحاشاها، وأن لا تنساق وراءها، لما تولده فيها من نزوع إلى الشر ، أو استثارة له، فالغزل هتك للأعراض ودعوة خفية إلى السفر و الخنا، و الهجاء، مجلبة للعداوة، وكلاهما كما ترى، يستند إلى حكمين دينيين جاء بهما الإسلام ودعا إليهما؛ ستر العورات، و البعد عن إثارة الضغائن، و العدوات التي تفرق وحدة الصف. ومعاوية أدرى الناس بفعل هذه المعولين، وهو الذي اصطلى بنار الفتنة والفرقة واكتوى بأجيجها.

لكن ما موقفه من المدح وهو الخليفة الممدوح...؟ يقول معاوية:" و إياك والمدح فهو كسب الأنذال وإن لم تجد من المدح بدا فكن كالملك المرادي حيث مدح فجمع بين نفسه وبين الممدوح فقال:

أحللت رحلي في بني ثعل * * * إن الـكريم للكريم مـحل[1]

فالأغراض الشعرية قد تكون مبتذلة في جوهرها كالتشبيب والهجاء، وقد تؤدي إلى الاتصاف بضدها كالمدح...فإعلاء شأن الممدوح، حط من قدر الشاعر وخلع صفات المروءة على الغير،اجتثاث للذات الباحثة عن العلياء والسيادة ...

غير أن الشاعر قد يلجأ إلى ما لا يرغب ساعتها، يضرب معاوية مثالا لحسن المخرج، والتخلص بما رآه في بيت المرادي من عفة، وترفع لم يثن منهما مدحه غيره .

إن المدح عند معاوية إنفاق الصفات الكريمة التي تلتمسها النفس، واستبدالها بالعطاء، أو بمقابل مادي رخيص...

ولعله لذلك كان يقدم طفيلا ويقول :"دعوا لي طفيلا فإن شعره أشبه بشعر الأولين من زهير."[2]

كما كان يفضل عدي ابن زيد ، ويقدمه على كثير من الشعراء[3].ومع كل هذا لا يكتفي معاوية بالجانب المعنوي للشعر ، ومدى اتفاقه مع ما ارتضاه من معيارية أخلاقية ، ليبدي نظرة لافتة لدرجات الكمال الشكلي في البيت الشعري الجيد.

---

1)-التفكير النقدي عند العرب: للعاكوب، ص: 66.

2)- نفسه: ص:66.

3)- الوساطة بين المتنبي و خصومة: للقاضي الجرجاني، تحقيق: محمود أبو الفضل إبراهيم و علي محمد البجاوي، المكتبة العصرية- صيدا- د.ت، ص:51.

فالشعر الحامل للقيمة الأخلاقية، قد ينحط في نظر معاوية، لأنه يفتقد إلى جانب شكلي مهم هو ما اصطلح عليه "بوحدة البيت" فقد أثر عنه أنه" أذن للناس إذنا عاما فلما احتفل المجلس قال: أنشدوني ثلاثة أبيات لرجل من العرب كل بيت قائم بمعناه، فسكتوا ثم طلع عبد الله ابن الزبير فقال: هذا مقوال العرب وعلامتها أبو خبيب قال :مهيم؟ قال أنشدني ثلاثة أبيات لرجل من العرب كل بيت قائم بمعناه قال : بثلاثة مئة ألف قال : وتساوي؟ قال: أنت بالخيار وأنت واف كاف، قال هات فأنشده للأفوه الأودي قال:

بلوت الناس قرنا بعد قرن * * * فلم أر غـير خـــــتال وقــال

قال صدق هيه، قال:

ولم أر في الخطوب أشد وقعا وأصعب من معاداة الرّجال

قال صدق قال هيه قال :

وذقت مرارة الأشياء طرا * * * فما طـــــعم أمر من السؤال

قال صدق ثم أمر له بثلاث مائة ألف [1]

فمعاوية يرى أن التضمين أحد عيوب الشعر، لأن البيت في القصيدة قد يؤدي غرضها العام ويعبر عن معناها فيشكل بذلك جوهرها أو ما سمته العرب ببيت القصيد...ويظهر وهو يمتحن جلساءه أنه كان يوجههم نحو شاعر بعينه، أحبه، وقدمه وشبه طفيلا به، وبرر بذلك تقديمه إياه.

غير أن عنايته هذه المرة كانت بالمبدأ النقدي، أكثر من عنايته بالشاعر نفسه ذلك المبدأ الذي رسخه النقد الأدبي عند العرب بعده، والذي كان الجاهليون أكثر الناس ولوعا به، والتزاما له...وقد كان من السهل الاستشهاد دون طول تفكير بشعر من يقول: "من...ومن" لولا أن عبد الله ابن الزبير، وغيره من جلساء معاوية كانوا يدركون جيدا مقاييس معاوية النقدية والشعر الذي عنه كان يسأل.

الشعر الذي يزيد النفس إباء و كرما، الشعر الذي توفر به نفسك و تؤدب به غيرك، ولذلك جعل عبد الله الحكم لمعاوية، وخيره وأغلى له الثمن...فهو يعلم ما جبلت عليه نفس معاوية من إعظام للبيت السائر، و المعنى اللطيف تشبها بالأولين من الخلفاء وعلى رأسهم عمر ابن الخطاب.

1)- تاريخ الخلفاء: للسيوطي: تحقيق الشيخين: قاسم الشماعي الرفاعي و محمد العثماني، دار القلم- بيروت- ط1، 1986، ص: 203.

هذه بعض نقدات معاوية الذي قلنا إنه أحد ممثلي الفرع السفياني أرومة و أصالة...و هي لا تشكل إلا استمرارا للمعيار الأخلاقي، الذي أقره الدين الإسلامي ومارسه الخلفاء الراشدون.

فالشعر رسالة، والشاعر مصلح، يهذب النفس، و يثقفها و يبعثها على الخلق الرضي الكريم، ويرغبها عن الدنايا...

وهو مسهم في بناء فكرة الأمة و إن قصرها معاوية على العرب...وعاد بها إلى شكلها الجاهلي، فماذا عن إسهامات ممثل الفرع المر واني، و أبرز مقيمي صرحه.

2)-عبد الملك ابن مروان:

يعد عبد الملك ثاني خليفة في دولة بني مروان وخامس الخلفاء الأمويين وتاسع خلفاء الدولة الإسلامية...ساهمت نشأته الإسلامية المحضة في طبع شخصيته بطابع عربي إسلامي خاص،"كما يدل ذلك على تمكنه من مستوى رفيع في البلاغة ومعرفة الآداب العربية ،وكما يظهر ذلك في خطبه ورسائله وأحاديثه الأدبية."[1]وماسنعرض له من آراء نقدية.

آلت إليه الخلافة بعد والده مروان ابن الحكم فقضى فيها إحدى وعشرين سنة يقول محمد حسن عبد الله :" وحين يستتب الأمر لبني أمية في عهد عبد الملك ابن مروان الذي طال خلافته وازدهرت دولته سنجد اسمه يتكرر كثيرا في مناقشة الشعراء ، وإصدار الأحكام على الشعر حتى ليعد من كبار نقاد عصره."[2]لكن الكاتب يستبعد هذا الحكم ، ويرى أنه نال الحظوة وتداولت آراؤه لأنه خليفة لا غير،و إن كان فقيها واسع الثقافة[3]وهو حكم لا نتفق معه فيه لأمور عديدة أبرزها:

أن شخصية عبد الملك الأدبية لم تكن وليدة تبوئه الخلافة، فقد ذكر مرة عند معاوية فقال فيه: "هو آخذ بثلاث وتارك لثلاث: آخذ بقلوب الناس إذا حدث، و بحسن الاستماع إذا حدث، و بأيسر الأمور إذا خولف، تارك للمماراة، تارك للغيبة، تارك لما يعتذر منه."[4]ومن حاز مثل هذه الصفات لم يصعب عليه أن يحوز أدبا وافرا، أو أن يصدر نقدا صائبا.

-كما أثر عنه أنه كان شديد الاختيار لجلسائه وسماره، فقد أورد صاحب العقد أنه أرسل إلى الحجاج "أن ابعث إلي رجلا يصلح للدين والدنيا أتخذه سميرا وجليسا وخليّا، فقال الحجاج:ما له إلا عامر الشعبي وبعث به إليه."[5]

---

1)-تاريخ النقد عند العرب: لعبد العزيز عتيق، ص: 195.

2)- مقدمة في النقد الأدبي: لمحمد حسن عبد الله، ص: 386.

3)- نفسه:ص: 386.

4)- مروج الذهب: للمسعودي،124/03.

5)- العقد الفريد: لابن عبد ربه.72/02.

و الشعبي هو الذي زكاه روح ابن زنباع، أمير فلسطين عند عبد الملك، فولاه قضاء البصرة[1] أحد المشهورين بالعلم والورع ورواية الشعر وخلابة المنطق والتواضع حتى أنه كان يسأل عن المسألة فيقول: لا أدري. و قال مرة:"لست لشيء من العلوم أقل رواية مني للشعر و لو شئت لأنشدت شهرا ولا أعيد بيتا."[2]

و الأخبار تروي الدستور الذي أوصى به عبد الملك ندعه الجديد، وما فيه من أدب المنادمة ما يدل على شخصيته الفذة لعبد الملك علما و أدبا وظرفا و حزما.[3]

كما أنه إضافة إلى كل هذا كان محبا للأدب راوية للجيد من الشعر ، كثير النقد له، يهوى الفخر و التقريظ و المدح على حد تعبير المسعودي.[4]

وعبد الملك فوق هذا وذاك، واسع إحاطة بالشعر، حتى إن الحجاج مرة أرسل إليه يعظم أمر قطري بن الفجاءة فكتب إليه عبد الملك، أوصيك بما أوصى به البكري زيدا فقال الحجاج لحاجبه ناد في الناس: من أخبر الأمير بما أوصى به البكري زيدا فله عشرة آلاف درهم فقال رجل للحاجب أن أخبره فأدخله عليه فقال له الحجاج ما قال البكري لزيد:قال: قال لابن عمه زيد:

أقول لزيد لا تـــثرثـــــر فإنهـــم * * * يـــرون المنايا قـــتلك أو قتـــلي

فإن وضعوا حربا فضعها و إن أبوا * * * فشب وقود الحرب بالـــحطب الجزل

فإن عضت الـــحرب الضروس بنابها * * * فعرضة نار الـــحرب مثلك أو مـــثلي

فقال الحجاج:صدق أمير المؤمنين، عرضة نار الحرب مثلي أو مثله.[5]

فالحجاج على سعة علمه و إطلاعه وما أثر عنه من رواية و تمثل بالشعر، احتاج إلى من يفك طلاسم رسالة الخليفة.وفيما يلي بعض آرائه النقدية وما حملته أخبار الأدب من تعقيبات.وإن كان بعض الدارسين[6]يرى أن نقده استمرار واضح لنهج معاوية، فهو -مثلا- يرى أن هدف الشعر هو إقامة اللسان وتهادي الحكمة واستخراج غوامض العلم من مخابئها وجمع ما تفرق منها.[7]

---

1)- السابق: 23/01.

2)- نفسه: 188/02، 308/05.

3)- ينظر مروج الذهب: للمسعودي، 03/ 100.

4)-نفسه: 99/03.

5)- ذيل الأمالي و النوادر: للقالي" طبع مع الأمالي للقالي"، دار الكتب العلمية- بيروت- 1978، ص: 71.

6)-التفكير النقدي عند العرب: للعاكوب، ص: 67.

7)- لباب الآداب:لأسامة منقذ الكناني،تحقيق: أحمد محمد شاكر،المطبعة الرحمانية-مصر- 1935، ص 228-229.

كما أنه يسعى دائما إلى تهذيب ولده و أهل بيته بما حسن من الشعر، تارة بالتمثل، و تارة بالامتحان والسؤال، فقد قال لهم مرة [1]: أي بيت ضربته العرب ووصفته أشرف وأعظم؟.

فأجابوا ولم يصيبوا ما بنفسه فقال لهم: إنه بيت طفيل الذي يقول فيه:

وبيت تهب الريح في حجراته * * * بأرض فضاء بابه لم يحجب

فهو على غرار معاوية يجد هواه وما يشبع شخصيته المتعالية العربية الأصيلة في طفيل فلا يرضى إلا به جوابا عن سؤاله.

وقد يتسع السؤال ليشمل جلساءه فقد سألهم[2] مرة أي المناديل أفضل فقال أحدهم مناديل مصر كأنها غرقيء البيض...فقال مناديل عبدة بن الطبيب حيث يقول:

لما نزلنا نصبنا ظل أخبية * * * وفـــار لـــلقوم باللحم المراجيل

ورد وأشقر ما يأنيه طابخه * * * ما غير الـــغلي منه فهو مأكول

ثمة قمنا إلى جرد مسومة * * * أعرافهن لأيـــديـــــنا مناديـــــل

وهي كما ترى تصور البيئة العربية الأصيلة التي تستثير الخليفة صورها، ولعله من أجل ذلك أعاب [3] على جلسائه، تعديل بيت نصيب دون إصابة ما كان تستوجبه الأنفة العربية والأخلاق السامية من غيرة على العرض حتى بعد الموت...فقال كنت أقول:

أهيم بدعد ما حييت فإن أمت * * * فلا صـــلحـــت لـــذي خـــلّة بعدي

فهو حريص على أن تكون الصورة الشعرية موافقة للذوق العربي، معتمدة على قيمه التاريخية التي تأبى على الرجل رضاه بالذل، والهوان، والتسليم في عرضه حتى و إن كان مجرد افتراض بعد الموت...

وحتى و لو تعلق الأمر بطريقة لباس الفارس العربي فهو غير متسامح مع الشعراء؛ مدحه مرة كثير فقال. [4]

على ابن أبي العاصي دلاص حصينة * * * أجـــاد الـــمسدي سردها و أذالها

يؤود ضعيف القوم حمل قتيـــــرها * * * ويستظلع القرم الأشم احتمـــالها.

1)- عن أدب السياسة في العصر الأموي: للدكتور/أحمد محمد الحوفي، دار العلم للملايين، بيروت، 1965، ص: 268.

2)- العقد الفريد: لابن عبد ربه، 124/01، والكامل: للمبرد: 02/ 149.

3)- الموشح: للمرزباني، ص: 298-299، و الكامل: للمبرد،183/01غيير صدر البيت.

4)- طبقات فحول الشعراء: ابن سلاّم الجمحي، ص:123.

فقال له عبد الملك: أفلا قلت كما قال الأعشى لقيس بن معد يكرب:

و إذا تجيء كتيبة ملمــومة * * * خرساء يــخشى الذائدون نهالها

كنت المقدم غير لابس جنّة * * * بالسيــف تضرب معلما أبطالها

و إن رضي بتبرير الشاعر كما تقول الرواية حيث قال: يا أمير المؤمنين وصف الأعشى صاحبه بالطيش والخرف و وصفتك بالحزم و العزم...

إن عبد الملك يرضى بالخرق والطيش والتغرير، حسب كثير لأنه يستحسن قول الأعشى. ويأبى عليه وصفه إياه بالتحصين وحسن السبك، ولبس الدرع المنيعة وإن دل ذلك على الحزم والعزم. لا لشيء إلا لأن العرب جرت على ذلك ووصفت أبطالها به، والصورة الشعرية لا تكتمل إلا وهي تبرز الخطر الداهم في أوج سخطاته، يواجهه بطل أشم حاسر غير مدرع... بشجاعته و إقدامه، وهل بعد ذلك من إقدام...

غير أن هذا التواصل المطرد مع التراث من شتى جوانبه لا يعني أن عبد الملك لم يستقل بآراء نقدية دقيقة... بل على العكس من ذلك فقد كان شديد الحساسية للكلمة، متنبها لموقعها في الكلام، سريعا لتحليلها، و سبر أغوارها واستدراج معانيها، وفهم خلفيات مستعملها فعندما قال جرير في عبد الملك:

هذا ابن عمي في دمشق خليفة * * * لو شئت ساقكم إلي قطيــنا

قال عبد الملك: جعلتني شرطيا لك... أما لو قلت: لو شاء ساقكم إلي قطينا لسقتهم إليك عن آخرهم[1]

فنسبة المشيئة التي قد تكون من مقتضيات صورة الفخر والتعالي للشاعر، حيث تدل على رفعته وحظوته عند ابن عمه – ما كانت لترضي عبد الملك – الخليفة العربي وما يفهم منها من تعالي على الملك والخلافة أو على قلة حزمه، وضعف رأيه حتى يرضخ لمشيئة شاعر من بني عمومته وهو ما لاحظه مرة أخرى على الأخطل حيث قال:

وقد نصرت أمير المؤمنين بنا * * * لما أتاك ببطن الغوطة الخبر

فقال له عبد الملك: بل الله أيدني. [2]

---

1)- الموشح: للمرزباني، ص: 201.

2)-نفسه: ص: 193.

واعترض عليه قوله:

خف القطين فراحوا منك أو بكروا

وقال له: بل منك لا أم لك وتطير عبد الملك من قوله فقال: فراحوا اليوم أو بكروا. [1]

فالشعر عنده كما كان يقول دائما: " تعلموا الشعر ففيه محاسن تبتغى ومساوئ تتقى" لذلك أعجب ببعض الشعراء، وفضلهم على من سواهم لحسن اختيارهم ما يتبع وما يطرح...

فقد قال لمؤدب أولاده مرة: أدبهم برواية أشعار الأعشى فإن لها عذوبة تدلهم على محاسن الأخلاق، قاتله الله ما أغزر بحره و أصلب صخره [2] وغزارة البحر أو صلابة الصخر، حكمان ليس من قبيل تحصيل السجع أو تنميق الكلام، فهما يدلان على اتساع علم عبد الملك بالشعر، وبشعر الأعشى خاصة حين لمس فيه ما لمس من عذوبة، تبعث على محاسن الأخلاق، ومن اتساع في المعاني، وقوة وصلابة في الألفاظ...

ولعله لذلك كان يكرم كثيرا ويقدمه؛ قال له مرة- كثير- كيف ترى شعري يا أمير المؤمنين؟

قال: أراه يسبق السحر ويغلب الشعر. [3]

ولعله لمس فيه توجيها تربويا أخلاقيا كالذي يطلبه لذلك كان "يخرج شعر كثير إلى مؤدب ولده مختوما يرويه ويرده. [4]

وعلى غرار معاوية كان يعلي من شأن بعض الأغراض ويحط من شأن بعضها الآخر على ضوء المعيار الأخلاقي ذاته، فكل شعر يدعو إلى مكارم الأخلاق، ويمجدها ويعلي من شأن صاحبها، هو عند عبد الملك شعر يستحق الرواية والإنشاد كالحكم الذي لم يرض فيه إلا بصورة معن ابن أوس المزني رغم ما عرضوا عليه من شعر امرئ القيس وطرفة والأعشى حتى أكثروا وحتى أتوا على محاسن ما قالوا على حد قول صاحب الأغاني. [5]

---

1)- السابق،ص:193.

2)-جمهرة أشعار العرب:لأبي زيد بن الخطاب، تقديم وشرح خليل شرف الدين،دار ومكتبة الهلال- بيروت- لبنان1999 ، 202/01.

3)-الأغاني: لأبي الفرج الأصفهاني، 30/09.

4-نفسه:31/09.

5)-نفسه: 77/12.

كما أن خلة الشجاعة، والكرم والسماحة واللين مع ذوي الأرحام والقسوة على الخصوم وسوى ذلك مما يفتخر به ويسعى إلى اكتسابه، ويستعان به على أعباء الحياة، لا تجد أكمل صورها في نفس عبد الملك إلا في قول العجير السلولي، فقد قال لمؤدب ولده: إذا روّيتهم شعرا فلا تروهم إلا مثل قول العجير السلولي[1]:

يبين الجار حين يـبين عني * * * ولم تأنس إليّ كلاب جـاري
وتظعن جارتي من جنب بيتي * * * ولم تستتر بستر من جداري
وتأمن أن أطالع حيـن آتي * * * عليها وهي واضعة الخـمار
كـذلك هـدي آبائي قديـما * * * توارثه النجار عـن البـحار
فهديي هديـهم وهم افتـلوني * * * كما افتلي العتيـق من المهار

وفق هذا المنهج التربوي المطبوع على أسمى صور الخلال الكريمة، يوجه عبد الملك أولاده ومن حضر بلاطه أو تناهى إليه حكمه من الشعراء... العفة، والعفاف و الشجاعة التي كان لا يراها ماثلة إلا في أبيات شبيب ابن البرصاء :

دعاني حصن للفرار فساعني * * * مواطن أن يثني عليّ فأشـتما
فقلت لحصن نجّ نفسك إنمـا * * * يذود الفتى عن حوضه أن يهدّما
تأخرت أستبقي الحياة فلم أجد * * * لنفسي حياة مثل أن أتقـدما
سيكفيك أطراف الأسنة فارس * * * إذا ريع نادى بالجوار و بالحمى
إذا المرء لم يغش المكاره أوشكت حبال الهوينى بالفتى أن تجـذّما

و لذلك شاع في عهد عبد الملك بعض النماذج الشعرية التي توشك أن تكون مثلا عليا يحتذى بها، على الصعيدين الفني و الأخلاقي ...دون انسلاخ عن المواريث الفنية الجاهلية، والأخلاق الإسلامية...ولا تناس للروح العربية الأصيلة ممثلة فيما صحّ و حسن من شعر الجاهليين.

---

1)- السابق:81/13.

فقد قال للأخطل مرة وقد أنشد[1]:

بكر العواذل يبتدرن ملامتي * * * و العاذلون فكلهم يلحانـــي

في أن سبقت بشربة مقديـّة * * * صرف مشعشعة بماء شنان

شبيب أكرم منك و صفا لنفسه حيث يقول:

و إني لسهل الوجه يعرف مجلـسي * * * إذا أحـــزن القاذورة المتعبس

يضيء سنا جودي لمن يبتغي القرى * * * وليل بخيل القوم ظلماء حندس

ألين لذي القربى مرارا وتلـــتـــوي * * * بأعـناق أعـدائي حبال تمرّس

أما المدح الذي قال فيه معاوية، " كسب الأنذال" فقد حاول عبد الملك أن يوجه الشعراء إلى معان موحية لا تخرج عما أسلفناه من صور إسلامية الروح، عربية الطابع، لا تنفر منها الأذن و لا تأباها النفس.

فقد أنكر على ابن قيس الرقيات تشبيهه بالأعاجم حين مدحه قائلا[2]:

يعـتدل التاج فـوق مـفرقـه * * * عـلى جـبـين كـأنه الـذهب

فقال عبد الملك: يابن قيس تمدحني بالتاج كأني من العجم و تقول في مصعب:

إنما مصعب شهاب من اللـــــــــه تجلت عن وجهه الظلماء .

و قد ذهب قدامة بن جعفر في نقد الشعر" أن عبد الملك لم يعجبه أن يمدح بصفات حسية في حين مدح مصعب بالصفات النفسية."[3]

بينما يرى طه إبراهيم[4] أن البيت لم يتجاوب معه عبد الملك،" لأن بين لبيتين بونا شاسعا من الجمال و القوة و الروح ،لأن بيت بن قيس في مصعب أروع وقعا،وأعلى نفسا و أمس بالنور العلوي، وأشد اتصالا بالله الذي يحرص الخلفاء على أن يمثلوه في الأرض."

---

1)-السلبق:326/12.

2)- نفسه: 307/04-308.

3)- نقد الشعر: لقدامة بن جعفر، أبي الفرج الكاتب البغدادي، تحقيق د/ محمد عبد المنعم خفاجي، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت، ص 215.

4)- تاريخ النقد الأدبي عند العرب: د/ إحسان عباس، ص: 134

فالصورة المستفادة من البيت الأول، لا تكاد تضيف شيئا، لا للملك، ولا للسامع لأنها وصف و تقرير تتجاوزه دون إمعان نظر، و تروية...

بينما البيت الثاني، و ما احتوى عليه من قصر و طباق، و استعارة، و توكيد، سيسترعي انتباهنا، و سيستوقفنا، سر تشبيهه بالشهاب، و مدى مطابقة المشبه للمشبه به، و مدى دلالتها على الواقع، وما صاحب كل ذلك من سياقات، دينية، و تاريخية

و أدبية، فتشبيهه بالشهاب وحده كاف، فما بالك إضافته إلى الله...

ونلمس عند عبد الملك توجيهات نقدية أخرى، تتجاوز ما أشرنا إليه، إذ يروي أنه قال لابن قيس الرقيات "أحسنت، لولا أنك خنثت في قوافيه" تعقيبا على قوله:

إن الحوادث بالمـــدينة قد * * * أوجعنني وقر عن مروتيّه

و جبنني جب السنام ولم * * * يتـــركن ريشا في منكبيه

وهي ملاحظة تتعلق بالموسيقى، و الأداء الفني للشعر...

فقوله خنثت في قوافيه،إشارة إلى مزاوجته بين قوة في المعنى،مجاراة للتعبير عن أهوال الدهر و نوائبه، و لين في القافية، تناقض الموسيقى الصاخبة الأولى...ولكن إلى أي مدى كان يقبل الشعراء هذه التعقيبات ؟روى ابن قتيبة أن الشاعرقال هذه المرة، للخليفة "ما عدوت كتاب الله ما أغنى عني ماليه."[1]

و إن كان اختيار القافية يبدو موفقا لمناسبتها الصراخ ، والشكوى و الندبة ، إثر ريب الدهر المتوالية ، لكن عبد الملك الذي لم يألف مثل هذه القوافي، بدت له في غير محلها، حتى و إن تعارض حكمه مع حكم الشاعر نفسه...

كما نستفيد من هذا الخبر أن كلا من الشاعر و الناقد – إن صح التعبير –كانا يرجعان إلى مثل أعلى، ويحتكمان إلى نموذج مثال، ينسج على منواله،وإمام يقتدى به و حاد يسار على أدراجه.فالقرآن هو الحكم الذي به رد الشاعر نقد عبد الملك، في إشارة خفية منه إلى ما يمثله، و ما يعكسه من بلاغة، و إحكام، وقوة...فهل يجوز أن نقول عنه مخنثا؟...

---

1)- الشعر و الشعراء: لابن قتيبة:ص: 547.

و نجد لعبد الملك أيضا آراء نقدية، تتناول بعض القضايا البلاغية كمدى مراعاة القائل لمقام المخاطب،أو استحضار النظائر و الأشباه، وما يدل على سعة الاطلاع و دقة الملاحظة و حسن المقارنة كاعتراضه على كثير وصفه مدرّعا و مبالغته في وصف درعه[1]، و سؤاله عن أشجع بيت قالته العرب.[2]

هذه إذن أهم المعايير النقدية التي تستند إليها أحكام عبد الملك بن مروان، و إن كان الكلام عن إسهاماته النقدية أكثر من أن يأتي عليه هذا المبحث الموجز.

---

1)- طبقات فحول الشعراء: لابن سلام، ص: 541-542.

2)- ينظر التفكير النقدي عند العرب: للعاكوب، ص: 73- 74.

الفصل الأول:

المعيارية الجمالية في إسهامات الخلفاء العباسيين النقدية:

1*/ مفهوم الشعر

2*/ الإيقاع:

أ*- الزماني

ب*- المكاني

3*/ العلاقات:

أ*- جمالية البيت:

❖ العكس

ب*- جمالية القصيدة:

1*- الابتداء وحسن الافتتاح

2*- الصياغة وجودة المعنى

ج*- الحكم على الشاعر

لقد شكلت مجالس الخلفاء العباسيين قبلة يؤمها الأدباء و الشعراء و النحاة و اللغويون و الرواة و المغنون، لذلك كانت متنوعة يرتادها منتحلو الآداب و العلوم و الفنون، من شتى الأصقاع و الأمصار، فنتج عن ذلك نظرات في الشعر و آراء في الشعراء خاصة"مجالس الطرب التي كانت الصبغة الأدبية غالبة عليها بما يثار فيها من حديث الشعر الشعراء، و وتفسير الكلمات التي يتغنى بها المغنون."[1] و هي أحاديث و آراء يمكن عدها إسهامات في العملية النقدية، التي ترتبط دون شك بعلوم و فروع معرفية أخرى كالفلسفة و التاريخ و غيرها. " فمنذ القديم كان الالتباس قائما بالنسبة لحدود ذلك النوع من المعرفة الذي نسميه النقد الأدبي"[2]لا لشيء إلا ليقتبس منها و ينهل ما يؤهله لهذا الدور المحوري في الفكر الإنساني،فالنقد الأدبي في حقيقته " تعبير عن موقف كلي متكامل في النظر إلى الفن عامة،أو الشعر خاصة يبدأ التذوق أي القدرة على التمييز و يعبر منها إلى التفسير و التعليل و التحليل و التقييم، خطوات لا تغني إحداها عن الأخرى و هي متدرجة على هذا النسق كي يتخذ الموقف نهجا واضحا مؤصلا على قواعد- جزئية أو عامة- مؤيدا بقوة الملكة بعد قوة التمييز."[3]

و إن كان هذا المفهوم الواسع للنقد لا يمكن أن يتحقق في مجالس الخلفاء العباسيين لانعدام مثل هذا المنهج " حين يكون أكثر تراث الأمة شفويا إذ الاتجاه الشفوي لا يمكّن من الفحص و التأمل، و إن سمح بقسط من التذوق و التأثر" [4] فإلى هذا العهد كانت الرواية الشفوية و الاعتماد على الحفظ طابع هذه المجالس التي يقول عنها بعض الدارسين إنها سارت على شاكلة سابقتها في العصر الأموي قيما و أساليب.[5]

---

1)-من روائع حضارتنا: د/ مصطفى السباعي، دار الصديقية – الجزائر- ص:234.

2)-محاضرات في تطور الأدب الأوربي: د/ حسام الدين الخطيب ، ص:381.

3)-تاريخ النقد الأدبي عند العرب: د/ إحسان عباس، ص14.

4)-نفسه: ص:14.

5)- ينظر مقدمة في النقد الأدبي: لمحمد حسن عبد الله، ص: 392.

و إن كان بعضهم الآخر يرى أنها: " تظل لبنة قوية لا يمكن الاستهانة بها في بناء صرح النقد الأدبي عند العرب"[1]، فقد تميز العباسيون دون غيرهم بالمغالاة في الترف و طلب المدح الصرف، الذي لا نظير له، إضافة إلى الثقافة الواسعة " إذ كان الخلفاء- العباسيون- يثقّفون ثقافة واسعة؛ و ينشّئون على حب الشعر و روايته، و قد كان الخلفاء من بني العباس أكثر ترفا، و أكثر حرصا على أن يمدحوا بما لم يمدح أحد بمثله." [2]

و فيما يلي صورة من تلك الإسهامات النقدية، وفق معياريتين متأصلتين في الفكر الإنساني، تتناول الأولى الشق الجمالي، بينما تتناول الثانية و تنصب على الجانب الأخلاقي.

---

1)-الحياة الأدبية في مجالس الخلفاء العباسيين" حتى نهاية القرن 3هـ": لمصطفى البشير قط، (رسالة ماجستير) جامعة الجزائر 1993، ص:146.

2)- مقدمة في النقد الأدبي: لمحمد حسن عبد الله، ص:392.

1/ مفهـــــوم الشعـــــر:

لقد اختلف النقاد و الدارسون قديما و حديثا اختلافا كبيرا في تحديد تعريف للشعر، و لعل أبرز رأي يطلعنا في نقدنا العربي القديم قول ابن سلّام " للشعر صناعة و ثقافة يعرفها أهـل العلـم كسائر أصناف العلم و الصناعات." (1)

فالشعر عند ابن سلّام صناعة تحتاج إلى دربة و مران تماما كما يحتاج الناسج أو النـــــجار أو غيرهما من أرباب الحرف و الصناعات.لذلك كثر تشبيه الشعر عندهم بالنسيج " فكثيرا مـا يشبهون الصنعة الكلامية بصناعة النسيج."(2)

و لعل مرد ذلك هو الحقيقة التي يقررها ابن سلّام كمبدأ قديم في نقد الشعر، حين يعرض لسبب تسمية مهلهل ""مهلهلا" فيقول:" و إنما سمي مهلهلا لهلهـلة شعره كهلهلـــة الثوب، وهـو اضطرابه و اختلافه، و من ذلك قول النابغة:

أتاك بقول هلهل النسج كاذب

ثم يجعلها في العرب عامة حين يتحدث عن الشعر عندهم فيقول: "هو كـلام منسـوج و لفـظ منظوم."(3)و لكن كيف يتصور الناقد-وفق ها المفهوم- العملية الإبداعية التي ارتبطت منذ القدم بالإلهام، و الوحي والرئي، ثم هاهي الآن تستحيل إلى مجرد حرفة لها أصول و قواعد تـتحكم بها؟

يجيبنا ابن الأثير، مخففا وطأة هذا التصـور، فيقول:" إذا رأيت العرب قد أصلـحوا ألفاظـهم و حسنوها و رققوا حواشيها و صقلوا أطرافها، فلا تظنن أن العناية إذا ذاك إنما هـي بألفـاظ فقط، بل هي خدمة منهم للمعاني." (4)

---

1)-طبقات فحول الشعراء: ابن سلّام الجمحي، ت/ محمود محمد شاكر، دار المدني جدة 1983، ط01،05/03.

2)-الأسس الجمالية في النقد العربي: د/ عز الدين اسماعيل، ص:184 ، و ينظر : بواكير المصطلحات النقدية (قراءة في كتاب الطبقات لابن سلّام):د/ رجاء عيد:فصول ، مجلة النقد الأدبي :المجلد06.ع02 ،يناير،فبراير،مارس 1986.

3)-طبقات فحول الشعراء: ابن سلّام،01/ 39.

4)-المثل السائر: ابن الأثير، أبي الفتح ضياء الدين نصر الله بن محمد بن محمد بن عبد الكريم الموصلي،تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية-بيروت -1995 ، 340/01.

غير أن أبا هلال العسكري لا يرى حرجا في أن يكون للشعر مدرسة تعلم من يريد تعاطيه،و تلقن المباديء الفنية التي بها يكون الشاعر شاعرا فيقول: " أخبرني أبو أحمد قال: كنت أنا و جماعة من أحداث بغداد ممن يتعاطى الأدب نختلف إلى مدرس نتعلم منه الشعر، فقال لنا يوما إذا وضعتم الكلمة مع لفقها كنتم شعراء." (1)

كما أن بشر ابن المعتمر لا يجد غضاضة في نصح كل من يريد تعاطي الشعر. (2) و كذلك يفعل ابن طباطبا بشيء من التفصيل، حين يحدد العملية الشعرية و يجعل لها مراحل و درجات و أدبيات، لا بد من اتباعها للوصول إلى " بناء قصيدة." (3) و هي أرفع مراتب الانسجام.و إن كان المفهوم المعاصر يفرق بين مفهوم الشعر و القصيدة، عكس ما يبدو في قول ابن طباطبا من تأثر بمفهوم وحدة البيت.

يقول عز الدين إسماعيل: " الشعر غالبا لا القصيدة هو ما ظفر من نقاد العرب بالعناية والوحدة الجزئية (البيت) لا الوحدة الكلية (القصيدة).... و هو عكس ما رآه استو فر فيها أساسيا لطبيعة الشعر قبل أن يضع له المبادىء." (4)

فلا بد أولا من توفر الفكرة التي يشكل البيت أصغر أجزائها لتلتئم مع غيرها من الوحدات فتشكل قصيدة و هو ما يفسر جنوح العرب و مبالغتهم في طلب المعنى المستقل في البيت المفرد. 5

فماذا عن إسهام الخلفاء العباسيين في ترسيخ هذا المبدأ الجمالي في فهم الشعر؟

---

1)- كتاب الصناعتين،الشعر و النثر: لأبي هلال العسكري، طبعة الآستانة، 1319هـ، ص:43.

2)- ينظر البيان و التبيين: للجاحظ، أبي عثمان عمرو بن بحر،تحقيق:المحامي فوزي عطوي، دار صعب -بيروت -1968،81/01- 86-87 و ما بعدها.

3)- عيار الشعر: لابن طباطبا العلوي،ص 23.وانظر جماليات القصيدة العربية بين التنظير النقدي والخبرة الشعرية ،شكري محمد عياد:فصول مجلة النقد الأدبي، مجلد 06 ع02 يناير ،فبراير،مارس 1986.

4)- الأسس الجمالية في النقد العربي: لعز الدين إسماعيل، ص:309.

5)- ينظر بحث هام لفان جيلدر بعنوان:بدايات النظر في القصيدة ،عصام بهي: فصول مجلة النقد الأدبي مجلد06، ع02،يناير،فبراير،1986.

لم يكن الخلفاء العباسيون في منأى عن هذا المبدأ النقدي لدى تعرضهم لمفهوم الشعر .يقول صاحب "خزانة الأدب" بعد أن أورد بيتي العباس ابن الأحنف:

و سعى بنا واش فقالوا إنها *** لهي التي تشقى بهـــا و تكابـد

فجحدتهم ليكون غيرك ظنهم *** إني ليعجني المحـــب الـجاحد

" تقدم لهذين البيتين نكتة لطيفة تؤيد تأكيد انسجامها و عذوبة ألفاظها"ثم يروي كيف أن المأمون قدم العباس ابن الأحنف للصلاة عليه – حين مات– على ابرهيم الموصلي، و الكسائي و هشيمة الخمارة، و رد على من استخبره عن ذلك بقوله: "أليس من قال هذا الشعر أولى بالتقديم." [1]و قد أوردهما صاحب الكتاب في باب الانسجام.

و نحن إذا تفحصنا البيتين جيدا، ثم عطفنا على هول الموقف الذي تُذكرا فيه لم نجد غير حسن التركيب، و الملاءمة بين الألفاظ مع المعنى الحسن الدافع على تقديم صاحبهما،و إن كان الأولى في هذا المقام تحكيم الأخلاق، بل في البيتين غزل وجحود، مما يدلك على أن النظر في الشعر ما كان ليراعي الأخلاق، و خاصة إذا تعلق الأمر بالمأمون الذي لم يكن في العلم بالشعر ونقده أقل من أبيه الرشيد؛ فقد كان كما وصفه أحمد فريد الرفاعي:" واقفا أتم الوقوف و أكمله على شعر العصر، و مقولات الشعراء مع حسن بصر و أتم حذق و أدق فهم."[2]و يكفي شهادة على ذلك ما أورده المبرد:عن ابن عقيل، قال: قلت لأبي حفصة الشاعر:" أعلمت أن أمير المؤمنين يعني المأمون لا يبصر الشعر، فقلت من ذا يكون أفرس منه و إنا لننشد أول البيت فيسبق آخره من غير أن يكون سمعه."[3]

---

1)-خزانة الأدب وغاية الأرب : للبغدادي،تقي الدين أبي بكر علي بن عبد الله الحموي الأزراري،تحقيق عصام شعيتو ،دار ومكتبة الهلال-بيروت-ط01،1987، 425/01- 426.

2)-عصر المأمون: للدكتور أحمد فريد رفاعي، مطبعة دار الكتب المصرية- القاهرة- ط1، 1927 ، 355/01.

3)-الأذكياء: لابن الجوزي، أبي الفرج عبد الرحمان بن علي، مكتبة الغزالي، د.ت، 39-40.

و كان سهل ابن هارون يقول:" لم أر أنطق من المأمون أمير المؤمنين "[1]كما كان شديد الإطناب في وصفه بالبلاغة و الجهارة بالحلاوة و الفخامة و جودة اللهجة و الطلاوة[2]

و دخل أبو نخيلة على السفاح فقال ما عسيت أن تقول بعد قولك لمسلمة:

أمسلمـــــة يـــا فخر كل خليـفـــة * * * و يا فارس الدنيـــا و يا جبل الأرض

شكرتك إن الشكر دين على الفتـــى *** و ما كـــل من أولـــــــيته نغمة يقضى

و أحييت لي ذكـــرا و ما كان خاملا * * * و لكن يعض الذكر أنيبه من بعض

و سمعه الرشيد فقال:" هكذا يكون شعر الأشراف مدح صاحبه و لم يصنع نفســه"[3] فالشـــعر الجيد في نظر كل من السفاح و الرشيد؛ هو ما أصاب صاحبه المعنى و استرشـــد بـــالموقف،و احتاط للمقام، أي وازن بين المادح و الممدوح، ولذلك كثر حديث الشعراء عن" معاناتهم لعملية تأليف الشعر، و عن الصعوبة التي يلاقيها من يروم هذا العمل لطول سلمه."[4]

و ربما كانت حدة النقدات التي كانت توجه لهم من قبل الخلفاء-خاصة- هي سبب هذه الشكوى لأن ارتباط الشاعر بالممدوح ارتباط وثيق منذ القديم، مما يساعدنا علـــى الحكـــم بـــان أكثـــر التجارب الصادقة في الشعر العربي و التي تعبر عن تجربة شعرية فرديـــة بحســـب الفهـــم الحديث إنما توفرت في شعراء قل ارتباطهم بهذه السلطة النقدية(الممـــدوح) كطرفـــة مـــثلا."[5]خاصة إذا بلغ الأمر التعقيب بضرب العنق، أو السب و الشتم[6]مما يحتم علينا البحث عن أهم الأسس التي يعتمد عليها كل من الخليفة (باعتباره مسهما في النقد) و الشاعر(باعتباره مبدعا) والناقد (باعتباره متخصصا).

---

1)-البيان و التبيين: للجاحظ، 75/01.

2)-نفسه :63/01.

3)-المستطرف في كل فن مستظرف: للأبشيهي: شهاب الدين أبي الفتوح،تحقيق د/مفيد محمد قميحة ، دار الكتب العلمية- بيروت- ط02، 1986، 507/01.

4)-الأسس الجمالية: لعز الدين إسماعيل، ص: 309.

5)-نفسه: ص: 309و جماليات القصيدة التقليدية بين التنظير النقدي و الخبرة الشعرية :شكري محمد عياد:مجلة فصول ،مجلة النقد الأدبي مجلد 06 ع02 يناير ،فبراير،مارس1986.

6)-ينظر الأغاني:لأبي الفرج الأصفهاني،34/04 ،05 /358 ،274/09.

فما مدى تفاعل هذه العناصر الثلاثة في النقد العربي؟

لقد نتج عن المفهوم السابق للشعر عند كل من النقاد و الخلفاء، و من الشعراء أن:

" أهملت القصيدة أو كادت....و كادت عناية النقاد تكون مقصورة على البيت لأنه أقل صورة يمكن أن يتمثل فيها مفهوم الشعر."[1]

و لم يتصوروا أن وحدة الشعور هي الأخرى قد تتحكم في القصيدة تماما كما فهموا مجرد الوزن الخليلي كقانون يميز سليم الشعر من فاسده رغم أن" أكثر الأبيات حيوية هي تلك التي تتوارى فيها حركات الإيقاع الموحية و الحركات العملية." [(2)] مما يضفي على الشعر تعقيدا و كمالا و دقة تربو به عن النثر.

و لكن ما الإيقاع الذي نقصده؟ و الذي نبحث عنه في موروثنا النقدي و الأدبي؟

---

1)- ينظر الأسس الجمالية: لعز الدين إسماعيل، ص: 307.

2)-نفسه، ص: 187.

2/ تعريف الإيقاع:

الإيقاع خاصية أساسية مشتركة في كل الفنون و إن كان في الموسيقى أظهر و أوضح منه في غيرها... و تحقق عناصر الجمال في العمل المصنوع أمر يحكم فيه العقل و الحواس هي التي تتخذ معبر تنتقل عليه لكي تتمثل للعقل... و قد حاول النقاد العرب أن يحددوا بعض هذه العناصر الجمالية...في كل الفنون[1] من خلال الإيقاع و العلاقات.

أ*- الإيقاع الزماني:

لقد بذل النقاد و البلاغيون العرب جهدا مضنيا في استكشاف مقومات القصيدة الصوتية،و لعل هذا القول الذي يسوقه قدامة ابن جعفر خير دليل على ذلك:"و أحسن البلاغة الترصيع و السجع و اتساق البناء و اعتدال الوزن و اشتقاق لفظ من لفظ و عكس ما نظم من بناء و تلخيص العبارة بألفاظ مستعارة و إيراد الأقسام موفورة بالتمام، و تصحيح المقابلة لمعان متعادلة، و صحة التقسيم باتفاق المنظوم و تلخيص الأوصاف بنفي الخلاف و المبالغة في الوصف بتكرير الوصف و تكافؤ المعاني في المقابلة و التوازي و إرداف اللواحق و تمثيل المعاني." [2]

و قد حاول ابن سنان الخفاجي أن يتبين عناصر الجمال الصوتي الخالص فعزاه إلى حسن الألفاظ و إلى بعد مقاطعها. [3]

لكن ابن الأثير يحكم للسجع بالتميز بين الجميل و غيره فيقول:" حاسة السمع هي الحاكمة في هذا المقام لحسن ما يحسن من الألفاظ و قبح ما يقبح، ثم يصرح برأيه السابق فيواصل قائلا:"فحسن الألفاظ إذن ليس معلوما من تباعد المخارج و إنما علم قبل العلم بتباعدها"[4]

فالعادة حسب ابن الأثير هي المعيار، و كأن اللفظ محكوم عليه قبل بالحسن أو القبح أن ينظم في سلك القصيدة.و من أسماء هذا الوصف-التوازن- أو -التكافؤ- أو - التعادل-،و هي عند أبي هلال العسكري أكمل و أحسن" إذا كنت لا تؤمن من نقص كرم و كنت لا أوتى من ضعف سبب فكيف أخاف منك خيبة أمل فهذا الكلام جيد التوازن و لو كان بدل 'ضعف سبب' كلمة آخرها ميم ليكون مضاهيا لقوله (نقص كرم) لكان أجدر."[5]

---

1)-السابق، ص:187.

2)-جواهر الألفاظ: لقدامة بن جعفر، طبعة الخانجي 1932، ص: 03.

3)-سر الفصاحة: لابن سنان الخفاجي، ص: 90.

4)- المثل السائر: لابن الأثير،81/01.

5)-الصناعتين: للعسكري، ص: 202.

فكلما كانت الفواصل على رنة واحدة و حرف واحد كانت صورة التوازن أكمل،و يبلغ الذروة – حسب قدامة بن جعفر – إذا كان مسجوعا[1].

و هو ما يورده أبو هلال مؤيدا على لسان الرسول –صلى الله عليه و سلم–"ارجعن مأزورات غير مأجورات"، و إنما أراد موزورات من الوزر؛ فقال مأزورات لمكان مأجورات قصدا للتوازن و صحة التسجيع[2].

و قد عده قدامة من نعوت الوزن و قصره على الصورة الصوتية حين يقول" و هو أن يتوخى فيه تصيير مقاطع الأجزاء في البيت على سجع أو شبيه به أو جنس واحد في التصريف كما يوجد ذلك في أشعار كثير من القدماء المجيدين من الفحول و غيرهم و في أشعار المحدثين المحسنين منهم."[3]

و هو وحده يضفي على الكلام الرونق و الحسن" و أكثر الشعراء المصيبين من القدماء والمحدثين قد غزوا هذا المغزى."[4]

فكل هذه القوانين و التعاريف من لدن البلاغيين و النقاد العرب، يكشف عن جانب جمالي استخلص أولا من النماذج الأدبية الراقية" ثم هم يتخذون من هذه القوانين أساسا للحكم الجمالي فالجمال في العمل الأدبي الجميل عناصر محققة يمكن البحث عنها و كشفها بل هو قوانين طبيعية ثابتة تتمثل في هذا الجميل. [5]

فما مدى تجلي هذه المعيارية الجمالية في الإسهامات النقدية لخلفاء بني العباس؟

إن من الأمور التي استحسنها الخلفاء العباسيون في هذا الجانب من الإيقاع الزماني تجانس اللفظ مع قرنائه من الألفاظ:

يروى أن حمادا الرواية أنشد أبا جعفر المنصور قصيدة جرير" بان الخليط" حتى بلغ قوله:

و تقول بوزع قد دببت على العصا * * * هلا هزئت بغيرنا يا بوزع؟

---

1)–جواهر الألفاظ: لقدامة، ص: 03.

2)–الصناعيين: للعسكري، ص: 200.

3)–نقد الشعر: لقدامة، ص:32.

4)–نفسه: ص: 38.

5)–الأسس الجمالية: لعز الدين إسماعيل، ص: 193.

فتساءل المنصور بوزع؟ أي شيء هذا؟ فقال حماد، اسم امرأة،فقال دهشا: امرأة اسمها بوزع، هو بريء من الله و رسوله.ثم أمر غلمانه بمعاقبة الراوية أسوأ عقاب، و قال له تركتني و الله يا هذا لا أنام الليلة من فزع بوزع". (1)

أهو مجرد استهجان للاسم؟ أم لتكلف القافية؟ أم هو عقاب على عدم مراعاة مقام وحال المخاطب؟أم الأمر أعمق من ذلك: عقاب على الحياد عن أسماء عربية لطالما تغنى بها القدماء ولهج بذكرها الشعراء؟ كلبنى و ليلى و سعاد و هند و غيرها...خاصة و أن المنصور اشتهر بعربيته الصريحة، حتى لقب بابن العربية، و بانتصاره للعرب،وبشخصيته القوية المجسدة لكل قيم العروبة و الإسلام... (2)

كما يظهر قول المنصور" تركتني لا أنام..." سخرية ظاهرة من هذا التركيب الذي فارق بين المعنى و اللفظ...فبينما يحمل البيت معنى غزليا لطيفا، رقيقا صاغه الشاعر في لفظة متنافرة الحروف" بوزع" توحي بالخوف، و تنبيء عن منظر يشع نرسمه في مخيلتنا لهذه المرأة... و هو كما ترى نقد صادر عن ذوق تحسس صاحبه اختلاف الإيقاع الصوتي بين الأبيات السابقة التي تبعث عن الحزن و الأسى و هذا البيت "الناشز" الذي ينبهنا فجأة بفظاظة هذا" البوزع" نقول هذا لأننا نؤمن بأن " الإحساس هو الذي يلد الألفاظ المناسبة للتعبير عنه، و ليس معنى هذا أن تنعدم عملية الاختيار، على النقيض إن الفن اختيار و لكن عملية الاختيار هذه لا تتم إلا من مشارف اللاوعي أو عندما يلتقي الوعي باللاوعي فالجانب الإرادي متحقق ولكنه عند الفنان الكبير لا يكون إرادة خالصة وإنما يمتزج الإلهام بالإرادة."(3)

---

1)- الأغاني: لأبي الفرج الأصفهاني،92/06.

2)-مقدمة في النقد الأدبي:للدكتور محمد حسن عبد الله،ص: 392.

3)-قضايا النقد الأدبي بين القديم و الحديث: د/ محمد زكي العشماوي، دار النهضة العربية- بيروت -د.ط، 1979 ص:249 .

و يؤيد رأينا هذا كذلك قول عبد القاهر:" و اعلم أن ما ترى أنه لا بد منه من ترتيب الألفاظ و تواليها على النظام الخاص ليس الذي طلبته بالفكر، و لكنه شيء يقع بسبب الأول ضرورة من حيث إن الألفاظ إذا كانت أوعية للمعاني فإنها لا محالة تتبع المعاني في مواقعها، فإذا وجب لمعنى أن يكون أولا في النفس وجب اللفظ الدال عليه أن يكون مثله أولا في النطق."[1]

فاللفظ في خدمة الموقف العام الذي وظف فيه، لكن لم لا يلام المبدع، بقدر ما عوقب الراوية؟.

قد يقودنا هذا إلى الحديث عن مهمة الراوية، و سلطته النقدية الانتقائية، و التي كانت تتشابه مع بعض الأدوار التي يؤديها الشعراء أمام الخلفاء، من حفظ للقصائد، حفظا جيدا و تحسين للصوت، و تعلم لفن الإنشاد. لأن "الإنشاد موهبة لها شانها الخطير في امتلاك أزمّة الآذان و جذب أعنة الحدق و التسلط على ألباب المستمعين في المحافل و المقامات المشهودة "[2]و يمكن أن نتذكر في هذا الموقف محمدا الراوية الملقب بالبيد ق، و الذي قال أبو الفرج فيه:" كان ينشد هارون الرشيد أشعار المحدثين و كان أحسن خلق الله إنشادا..."[3] و قد بلغ تأثيره في الرشيد أن رمى مرة بخوان طربا" و صاح و قالﷺ هذا و الله أطيب من كل طعام و كل شيء."و قل مثل ذلك على المغنيين الذين كانوا يفعلون بالخلفاء فعل الخمر. [4]

يدفع النوم عن الجفون... و يثبت الخوف في القلوب.

يقول صاحب المثل السائر:" و لهذا يختار في ذكر الأماكن و المنازل ما رق لفظه و حسن النطق به كالعذيب و الغوير و رامة و بارق و العقيق و أشباه ذلك...، كما يختار أسماء النساء في الغزل نحو سعاد،و أميم و فوز و ما جرى هذا المجرى، و قد عيب على الأخطل في تغزله بقذور و هو اسم امرأة أو تماضر و هو ثقيل."[5]

---

1)-دلائل الإعجاز: لعبد القاهر الجرجاني،أبي بكر بن عبد الرحمن ، تحقيق:د/محمد التنجي بن محمد ،دار الكتاب العربي -بيروت- ط01، 1995 ص: 58.

2)-الشعراء و إنشاد الشعر: لعلي الجندي، دار المعارف- مصر- 1962، ص:09.

3)-الأغاني: لأبي الفرج الأصفهاني، ج 13 /165، و انظر خبرا آخر، 20/ 56-57.

4)-نفسه: 01/ 403- 404 و 69/03 و 77/04 و 04/ 102 و 109/04.

5)-المثل السائر:لابن الأثير، 228/02

و قد أفاض الأدباء و الكتاب قديما في الحديث عن ذلك كما سنرى في كلام لاحق... عن المقومات الجمالية للقصيدة العربية.

كما يمكن أن يكون نوعا من التأصيل لآداب مخاطبة الملوك، إذ البلاغة و حسن الأدب، والظرف...مراتب تقتضي مراعاة المقام و إنزال المقال منزلته، و هي في الراوية أوكد لأنه نديم، و هو ما استدركه التأليف فيما بعد. (1)

و ملاحظة أخرى جديرة بالاهتمام، و هي هذا الحكم السابق للمنصور على اللفظة مستقلة، و هو ما نجد له فيما بعد صدى عند ابن سنان الخفاجي، الذي يقول عنه أحمد زكي العشماوي:" لابن سنان الخفاحي دراسة نافعة للكلمات من حيث هي أصوات مسموعة وللعلاقات التي تنشأ من تباعد مخارج الحروف و تقاربها... و ذكر أن الحروف تجري من السمع مجرى الألوان من البصر و أنها تختلف باختلاف تقاطع الصوت."(2) و هو ما نادى به كولردج فيما بعد(3).

و هكذا نسجل للمنصور فضل السبق في الإشارة إلى حسن اللفظة أو قبحها منفردة، و في سياقها، انطلاقا من إدراكه للإيقاع العام للبيت تماما كرؤية لون غريب يتوسط و يعقب منظرا ساحرا و حالما.

كما توسط اسم " بوزع" و ختم مشهدا جرير، و قد كان يمكن أن يستحسن أولا لولا جمعه آخرا بين غرض النداء المستعطف، و المنادى المحفز للأسماع...

و قد عرف الرشيد كأشهر من خاض في هذه القضية، و من ذلك أن أبا نواس دخل عليه يوما فطلب الرشيد أن ينشده قصيدته في مدح الخصيب، فانشده إياها فلما بلغ قوله:

فإن يك باقي إفك فرعون فيكم *** فإن عصا موسى بكف خصيب.

فقال الرشيد ألا قلت:

فباقي عصا موسى بكف خصيب.

فقال له: هذا أحسن و لم يقع لي(4).

---

1)-فوضعت سلسلة من الكتب التأديبية، كأدب الكاتب، و أدب مخاطبة الملوك، و غيرها.

2)-قضايا النقد الأدبي بين القديم و الحديث: للعشماوي، ص: 295.

3)-نفسه: ص: 245.

4)-الموشح: للمرزباني، ص: 426

فالرشيد يأخذ على أبي نواس عدم إحكام صنعته، و مجانسته بين شطري بيته، فكان حقه أن يقول:" فباقي عصا موسى" مراعاة للشطر الأول "باقي إفك فرعون".

و هو أساس بنى عليه البلاغيون كما رأينا قواعدهم، و مبادءهم في الحكم على العبارة بالجمال أو ضده، فقدامة يصرح بضرورة توخي" تصيير مقاطع الأجزاء في البيت على سجع أو شبيه به، أو جنس واحد في التصريف."[1]

و هو مناط حكم هارون الرشيد النقدي لأنه وازن بين شطري البيت صوتيا فاستشقى نقصا واضحا، سرعان ما تلمسه في إغفال أبي نواس الذي عبر عنه بلم يقع لي."بمجانسة لفظ "باقي" في الشطر الثاني و لعل تعبير أبي نواس و تبريره يحمل في طياته كنه حقيقة نقد الرشيد فقوله " لم يقع لي" يدل على أنه تنبه أن العيب إنما كان في الجانب الصوتي خاصة.

و نلاحظ أيضا في هذا الخبر،أن لفتة الرشيد لم تحصل إلا بعد استنشاد، مما يبعث في نفوسنا تقدير أن الممارسة النقدية عند الرشيد، تميزت عن غيرها بكثير من الوعي،و التفكير المسبق فكأن الرشيد نظر مسبقا، في هذين اللفظين غير المتجانسين " باقي-إن" و أعد لها لفظا أحكم و أصوب ثم تحين الفرصة و سجل اللفتة و لم تستبعد ذلك و ما كان أحد من الخلفاء أحظى في الشعر منه[2] فقد كان عالما بالشعر [3]، و كان " صحيح الذوق و التمييز"[4] و كان يحرص على تتبع الشعر الغامض و فهمه، فقد استدعى إليه الكسائي يوما فسأله عن معاني كثير من الأبيات المشكلة التي لم يزل" ساهرا مفكرا" في ما خفي عنه من معانيها. [5]

---

1)- نقد الشعر: لقدامة بن جعفر، ص: 32.

2)- الحيوان: للجاحظ ،تحقيق عبد السلام هارون، دار الكتاب العربي- بيروت -ط3، 1969، 04/382-383.

3)-الأوراق و أخبار الشعراء: للصولي، نشر: ج هيورث، مطبعة الصاوي-القاهرة- ط1، 1934، ص77.

4)-الفخري في الآداب السلطانية و الدول الإسلامية: لابن الطقطقي، مكتب عز للتوريدات، مكتبة قو منسيون،-مصر- د.ت، ص:159 .

5)-المحاسن و المساوىء: للبيهقي، إبراهيم بن محمد(من علماء القرن 4هـ)، دار بيروت للطباعة و النشر، -بيروت -1979، ص:411-413.

كما أن صاحب قرى الضيف يقول في حقه:" إنه لم يجتمع بباب أحد من الخلفاء و الملوك مثل ما اجتمع بباب الرشيد من فحولة الشعراء المذكورين كأبي نواس، و أبي العتاهية، و العتابي و النمري و مسلم بن الوليد و أبي الشيص و مروان بن أبي حفصة و محمد بن مناذر." [1]

فوفرة النماذج الشعرية الجيدة "فحولة الشعراء"من جهة و امتلاك الملكة النقدية من جهة أخرى جعلتا الرشيد من أهم المسهمين في توجيه الإبداع الشعري، بل و صار صاحب مذهب يعرفه الشعراء و يتحرونه و يسايرونه كما في قصة النمري[2]من هنا إذن تستمد إسهامات هارون الرشيد النقدية خصوصيتها،و إن كان بعض الدارسين لا يعدو به الفطرة العربية السليمة، يقول طه أحمد إبراهيم عن النقد في مجالس الخلفاء العباسيين:" كان يتجه إلى الصياغة و المعاني، و يعرض لها من ناحية الصحة، و من ناحية الصقل و الانسجام كما توحي به السليقة العربية"[3]

غير أن القصة التالية تبين عن حس نقدي من الإجحاف قصره على السليقة إذ يروى أن الراجز العماني حينما دخل على الرشيد و أنشده:

كأن أذنيه إذا تشوفا * * * قادمة أو قلما محرفا.

" فعلم القوم أنه قد لحن، و لم يهتد منهم أحد لإصلاح البيت إلا الرشيد فإنه قال له، قل: تخال أذنيه إذا تشوفا. [4]

فمجرد العلم باللحن(سليقة) و لذلك صدر عن جميع من حضر بينما إيجاد اللفظ المناسب بكل معاييره يجاوز ذلك و يربو عليه، و لذلك لم يصدر إلا من الرشيد، الذي حسم الخلاف باختيار الفعل " تخال" الناصب لمفعولين، ثم المؤدي للمعنى و المنسجم مع إيقاع البيت.و لا شك أن القول بالاكتفاء بدور "السليقة" ها هنا، فيه شطط و غمط لكثير من الإسهامات النقدية التي صدرت عن غير النقاد المتخصصين و هي مرحلة تاريخية شهدتها كل الآداب العالمية أقصد مشاركة الأشراف في تكوين النقد و تأسيس دعائمه[5].

---

1)-قرى الضيف: لعبد بن محمد بن عبيد ،تحقيق عبد الله بن حمد المنصور ،أضواء السلف –الرياض–ط01، 1997 ، 226/03.

2)- ينظر الأغاني:لأبي الفرج، 158/13.

3)- تاريخ النقد الأدبي عند العرب من العصر الجاهلي إلى ق4 هـ: لطه أحمد إبراهيم، المكتبة العربية، بيروت 1981، ص:15.

4)-ينظر الكامل في اللغة و الأدب: للمبرد: 108/02–109 و العقد الفريد لابن عبد ربه، 367/05، والموشح للمرزباني، ص: 456 .

5)-ينظر تطور النقد الأدبي في العصر الحديث:كارلوني و فيللو ،ترجمة جورج سعد يونس،منشورات دار مكتبة الحياة –بيروت–لبنان– ص:12–13–14 .

ب*- الإيقاع المكاني:

كما نلاحظ جانبا آخر احتفل به النقاد و البلاغيون العرب، ممثلا في ما سماه بعض الدارسين بالعنصر المكاني و يعنون به، البحث عن الدلالات التي هي صورة مكانية للأصوات، و في الإيقاع الذي تحدثه اللغة من حيث إنها أصوات.[1]

يقول قدامة عن التكافؤ الذي يختص عنده وصفا بالمعاني هو أن يأتي شاعر بمعنيين متكافئين و يضرب مثالا قول أبي الشعب العبسي.

حلو الشمائل و هو مر باسل * * * يحمي الذمار صبيحة الإرهان.

فقوله:" حلو و مر تكافؤ".[2]

فكل مقابلة –عنده– تكافؤ و هو أكمل و أوضح صور التكافؤ يقول في جواهر الألفاظ مجددا:

"... و التكافؤ، كقوله كدر الجماعة خير من صفو الفرقة، لأنه لما قال كدر قال صفو و لما قال الجماعة قال الفرقة." (3)

فالعلاقة المكانية بين هذه الوحدات الإيقاعية اللغوية هي التكافؤ أو التوازن كما يقرره مرة أخرى قدامة و هو يسوق مثالا آخر في جواهر الألفاظ. (4) فكل وحدة وصفت مقابلة لوحدة أخرى إزاءها بحيث المعنى أو الإيقاع اللغوي باختلاف إحداها.و ينسحب الحكم ذاته على الطباق الذي هو أحد صور المقابلة حسب الآمدي(5)و يمكن إيجاد صور عملية تطبيقية تبين لنا كيف كان النقاد يحاسبون الشعراء وفقا لقوانين الإيقاع(6) كما أن الشعراء سرعان ما بذلوا قصارى جهدهم في أن يوفروا لشعرهم هذا التوازن الإيقاعي، في الدلالات كما وفروه في الأصوات، بعد أن اتضحت لهم هذه الحقيقة النقدية المؤسسة لحكم جمالي بحت فما مدى إسهام الأحكام النقدية للخلفاء العباسيين، في هذه القوانين و الآراء النقدية؟

---

1)-ينظر الأسس الجمالية: لعز الدين إسماعيل، ص: 194 و ما بعدها.

2)-ينظر نقد الشعر: لقدامة، ص: 141-142.

3)- جواهر الألفاظ: لقدامة، ص: 07.

4)-نفسه: ص: 05.

5)-الموازنة بين شعر أبي تمام و البحتري :للآمدي، أبي القاسم الحسن بن بشر ،تحقيق عبد الله محمد محارب ،مكتبة الخانجي-القاهرة - 1990، ص:188.

6)-الأسس الجمالية: لعز الدين إسماعيل، ص:197.

لقد عرف الرشيد مثلا بمداخلاته النقدية في نقد معاني بعض الشعراء، و من ذلك ما يختص بالإيقاع المكاني الذي نظرنا له سلفا مما يكشف عن دقة حسه النقدي و من ذلك أن الأصمعي أنشده يوما قصيدة للنابغة الجعدي، حتى إذا بلغ قوله:

أشم طويل الساعدين شمردل * * * إذا لم يرح للمجد أصبح غاديا.

فقال الرشيد ويله و لم لم يروحه في المجد كما أغداه؟ ألا قال:

إذا راح للمعروف أصبح غاديا

فقال الأصمعي:" أنت و الله يا أمير المؤمنين في هذا أعلم منه بالشعر."[1]

و واضح دقة هذا الحكم النقدي الذي تمثل أولا وحدات معنوية، ثم لما قابل بينهما وجد اختلالا في التوازن أو التكافؤ كما سماه قدامة، فكل وحدة وضعت مقابلة لوحدة إزاء ها" إذا راح للمعروف أصبح غاديا." و هو ما لم يحققه الشاعر أولا حين نفى عنه الرواح " إذا لم يرح" بينما أثبت له " الغدو" مما أوحى باختلال في المعنى أو الإيقاع اللغوي، حتى و إن كان الشاعر صادقا في دعواه، إلا أن الحرص على توفير هذا التوازن الإيقاعي في الدلالات كان –كما قلنا – ضرورة أدركها النقاد و سرعان ما انساق لها الشعراء، لأنها استنبطت من نماذج شعرية راقية[2]

---

1)- الموشح: للمرزباني، ص:93

2)- ينظر الأسس الجمالية في النقد العربي: لعز الدين إسماعيل، ص:193.

و قد نجد تمثيل هذا المبدأ في اختيار الأشعار أكثر جلاء عن أبي جعفر المنصور، فقد قيل إنه سأل أبا دلامة عن أشعر بيت في المقابلة فأنشد ما أحسن الدين و الدنيا إذا اجتمعا
و أقبح الكفر و الإفلاس بالرجل. (1)

و الخبر إن صح، دليل على إدراك قوي لكل من الخليفة و الشاعر، بضرورة إحكام المعنى، و نظمه بحيث يوافق بعضه بعضا، و يقابل أوله أواخره، إذ لا يكفى عند هذا الخليفة مجرد المقابلة، بل هو يطلب أحسنها، مذكرا إيانا بالشروط التي وضعها النقاد،و البلاغيون لأحسن صور الإيقاع المكاني، و الذي يسميه قدامة التكافؤ و هو عنده أكمل و أوضح إذا أحكمت العلاقات المكانية بين الوحدات الإيقاعية اللغوية.[2]

فما أحسن ≠ أقبح

الدين ≠ الكفر

الدنيا ≠ الإفلاس

ثم جعل المعنى الواحد مشتركا بين هذه الوحدات المتقابلة(إذا جمعا بالرجل) و " ما' التعجبية، و لذلك أوردها صاحب خزانة الأدب في باب مقابلة ثلاثة بثلاثة، كإشارة منه إلى كمالها، و جمالها و جودة صناعتها...

و لعل السبب ذاته هو ما جعل المأمون دائم التمثل بقول الشاعر:

رأت وضحا في الرأس مني فرا * * * عها فريقان مبيض به و بهيم

تفاريق شيب في السواد لوامع * * * فيا حسن ليل لاح فيه نجوم[3].

---

1)-خزانة الأدب:للبغدادي، 131/01.

2)-ينظر جواهر الألفاظ: لقدامة بن جعفر، ص: 141-142.

3)-المستطرف في كل فن مستظرف: للأبشيهي، 70/02.

و لا شك أن البيت لا يعلق بالنفس إلا إذا حقق لنا " فرصة الشعور المشترك بمتع رفيعة."[1]حسب فرويد، " فالشاعر يضعنا في حالة الاستمتاع باستهاماتنا الخاصة دون أي شيء من ألوان اللوم أو من الخجل."[2]

و من هنا يمكن فهم لجوء الخلفاء إلى التمثيل بأبيات خاصة توافق حالاتهم النفسية ورغباتهم الفنية، و الخبر الآتي يوضح ذلك؛روى صاحب المستطرف[3] أنه دخل إبراهيم بن المهدي على المأمون فقال: إنك لنعم الخليفة الأسود فقال إبراهيم نعم، فتمثل المأمون ببيت نصيب فقال:

إن كنت عبدا فنفسي حرة * * * أو أسود اللون إني أبيض الخلق

و لا يخفى ما في هذا البيت من تكافؤ إيقاعي راق دون إغفال للعلاقات المكانية بين وحداته اللغوية حتى ليخيل إلينا أن الموصوف بهذا البيت – سواء أكان الشاعر أو المتمثل- صورة مثالية للتضاد الشكلي و المعنوي... أو لنقل أعاد تشكيل نظرتنا تشكيلا جديدا مبنيا على ثنائية متقابلة جعلتنا نضع :

العبودية الظاهرية ≠ الحرية النفسية

السواد الخلقي ≠ البياض الخلقي

و إن كان التمثل – كظاهرة تجتاح مجالس الخلفاء عامة- يحتاج إلى وقفة أطول لا تكفيها هذه السطور.

---

1)- يراجع النقد الأدبي و العلوم الإنسانية:لجان لوي كابانس، ترجمة: فهد عكام، دار الفكر – دمشق- سورية –ط01، 1982، ص:02.

2)-نفسه، ص: 45.

3)-المستطرف في كل فن مستظرف: للأبشيهي، 53/02.

كما نجد عند الخليفة المهدي نزوعا إلى اختيار أشعر الأبيات وفق هذا المبدأ فقد سأل مرة جلساءه عن أنسب بيت قالته العرب فذكر له بيت لامرىء القيس و آخر لكثير فلم يأبه بهما، حتى ذكر له قول الأحوص:

إذا قلت إني مشتف بلقائها * * * فحم التلاقي بيننا زادني سقما

قال أحسن و الله [1]و ما إحسانه فيما يبدو إلى لجمعه بين معنيين متضاربين، يعبران عن حالتين نفسيتين تتنازعان الشاعر الذي كلما ظن أنه سيشفى بلقاء أليفته، و طلب هذا الدواء، ازداد مرضا على مرض و راح مثقلا بالأوصاب و الأسقام... و هو ما لم يحفل به امرؤ القيس:" و ما ذرفت عيناك إلا لتضربي***بسهميك في أعشار قلب مقتل

الذي اكتفى بالوصف و الشكوى و التقرير،و كثير:

" أريد لأنسى ذكرها فكأنما تمثل لي ليلى بكل سبيل"

الذي يريد أن ينسى ليلاه فلا يستطيع، و يلاحقه طيفها أينما حل و ارتحل.

ثم إننا إذا تأملنا إبداعات هؤلاء الخلفاء أنفسهم ،وجدنا انسياقا وراء المبدأ الجمالي الذي حاولوا أن يطبقوه على الشعراء.

و أول هؤلاء الخلفاء السفاح مؤسس الدولة العباسية الذي يروي له شعر يجسد فيه الصراع مع الأمويين[2]، و من ذلك قوله: [3]

تناولت ثأري من أمية عنوة * * * و حزت بثأري اليوم من سلفي قسرا

و ألقيت ذلا من مفارق هاشم * * * و ألبستها عزا و أعليتها قدرا

فالسفاح حتى و هو في هذه الحالة النفسية الثائرة،لا يتخلى عن مبدأ التكافؤ،الذي يتجسد بوضوح في البيت الثاني ،بين شطريه.

و كذلك الأمر بالنسبة لأبي جعفر الذي فاقت شهرته شهرة أخيه و من شعره المتداول بين الناس قوله: [4]

إذا كنت ذا رأي فكن ذا عزيمة * * * فإن فساد الرأي أنت تترددا

و لا تمهل الأعداء يوما بقدرة * * و بادرهم أن يملكوا مثلها غدا

---

1)-الأغاني: لأبي الفرج الأصفهاني، 04/ 262.

2)-الحياة الأدبية في مجالس الخلفاء العباسيين حتى نهاية ق 3هـ : لمصطفى البشر قط، ص:65.

3)-نفسه: ص:65 .

4)-تاريخ الخلفاء: للسيوطي، ص: 308.

فتقابل الوحدات اللغوية نظم بحيث تنتقل تدريجيا من الاحتمال إلى التأكيد و من التقدير إلى التقرير.

إذا كنت ذا رأي ≠ فساد الرأي

كن ذا عزيمة ≠ أن تترددا

و كذلك في قوله مخاطبا أبا مسام الخرساني بعد مقتله:

زعمت أن الدين لا يقتضي * * * فاكتل بما كلت أبا مجرم

و انتثرت كؤوسا كنت تسقى بها * * * أمر في الحلق من العلقم

فقوة البيتين التي نستشعرها من القراءة الأولى، إنما تأتي من جمعه بين المتضادات ومراعاته إيقاعا معينا؛فالأمر في قوله"فاكتل" يوحي بالانتقام البغيض،و التشفي المنافي للمروءة لكن ذلك لا يلبث أن ينقشع و يستحيل إلى الضد حينما نقرأ " بما كلت" التي توحي بالجزاء العادل، والعاقبة المكافئة.

و مثل ذلك نلحظه في قوله:" اشرب كؤوسا ≠ كنت تسقي بها "

" فالخلفاء العباسيون لم يكتفوا بالاستماع إلى ما كان ينشده الشعراء"[1] بل كانوا مشاركين إبداعا و إنتاجا، حتى وجدنا من يترجم لهم كابن الجراح في كتابه الورقة حينما ترجم لهارون الرشيد، و المرزباني في معجم الشعراء، حتى و إن كان منهجه هو أن يترجم لكل من قال شعرا حتى لو كان نزرا.

---

1)- الحياة الأدبية في مجالس الخلفاء العباسيين حتى نهاية ق 3 هـ: لمصطفى البشير قط، ص: 64.

3/ العـــلاقـــــــــات:

هي العناصر أو الأجزاء المكونة للعمل الفني، و تشكل أداة هـذا العمـل ولا يتصـور اجتماع هذه العلائق دون رابطة توثقها، فالاعتباطية شيء لا يمكن تخيله في العمل الفنـي، و إلا ما خرج إلى الوجود و لما استحق لفظ الإبداع، و مناط الحكم بالجمال أو القبح، هو علاقـة هذه الأجزاء بعضها ببعض، ثم علاقة كل جزء بالكل، و لما كانت الألفاظ هي عناصر العمـل الأدبي، و كانت الألفاظ أداة فن القول، سارع النقاد العرب إلى سـبر أغوارهـا، مـن خـلال مجموعة من النظم التحصيلية، التي تربطها مفردة (الحروف) ومـع غيرهـا (الألفـاظ) وأول مفهوم يطالعنا؛ هو قول ابن الأثير "إن تفاوت التفاضل يقع في تركيب ألفاظ، أكثر مما يقع فـي مفرداتها لأن التركيب أعسر و أشق" ،و يسوق مثالا قوله تعالى:" و قيل يا أرض ابلعي ماءك و يا سماء أقلعي وغيض الماء...واستوت على الجودي....." الآية

ثم يعقب " إذا فكرت في هذه الآية لم تجد للألفاظ مزية ظاهرة، إلا لأمر يرجع إلى تركيبهـا و انه لم يعرض لها هذا الحسن إلا من حيث لاقت الأولى بالثانية، و الثالثة بالرابعة و كذلك إلـى آخرها."[1]

فاللفظة مفردة لا جمال فيها و لا قبح، لأنها قد تستعمل في موضع و لم تحسـن، و فـي آخـر فتحسن، كما أنك قد ترى لفظين يدلان على معنى واحد، و كلاهما حسن في الاستعمال و همـا على وزن واحد، و عدة واحدة إلا أنه لا يحسن استعمال هذه في كل موضع تستعمل فيه هـذه، بل يفرق بينهما في مواضع السبك.[2] و ليس معنى ذلك أننا لا نتخير الألفاظ، بـل تشـكل هـذه الخطوة الأولى عند ابن الأثير قيمتها (اللفظية) فتتضح من موضعها الذي ركبت فيه.

---

1)- ينظر المثل السائر: لابن الأثير،152/01.

2)- ينظر نفسه،151/01.

يقول في ذلك:" يخيل للسامع أن هذه الألفاظ ليست تلك التي كانت مفردة، تماما كلآلئ ليست ذات قيم عالية لكنها أحسن تأليفها و وضعها في سبكها، فيخيل للناظر أنها ليست تلك التي كانت منثورة مبذرة، و في عكس ذلك من يأخذ لآلئ من ذوات قيم عالية فيفسد تأليفها، فإنه يضع من حسنها و كذلك الألفاظ الغالية مع فساد التأليف[1]، و يعد عبد القاهر رائد هذا الميدان، من حيث التطبيق والمقارنة و التحليل، خاصة في مؤلفه دلائل الإعجاز الذي أبان فيه عن نظرته النظم؛ فالألفاظ –عنده– لا تتفاضل من حيث هي كلم مفردة، كلفظ الأخدع في بيت الحماسة:

تلفـــت نحو الحي حتى وجـــدتني * * * وجعت من الإصغاء ليتا و أخدعا

و بيت البحتري:

و إنيوفي و إن بلغتني شرف الغنى* * * و أعتقت من رق المطامع أخدعي

فإن لها في هذين المكانين ما لا يخفى من الحسن، ثم إنك إن تأملتها في بيت أبي تمام:

يا دهر قوِّم من أخدعيك فقد * * * أضـــججت هذا الأنـــام من خرقك.

تجد لها من الثقل على النفس، و من التنغيص و التكدير أضعاف ما وجدت لها من الروح والخفة و الإيناس و البهجة"[2]؛فالجمال الحاصل للفظة مفردة، إنما تأتي لها من علاقتها بغيرها و انصهارها ضمن الكل لا لمزية اختصت بها دون سواها، و إلا استثقلت في بيت أبي تمام بقدر ما استحسنت قبل.

يقول عز الدين إسماعيل:" فنحن حين نفهم الكلام فإننا نفهم فيه علاقات فقط، و حينما نحكم بجمال هذا الكلام، فإننا نحكم في الواقع بجمال هذه العلاقات و كلما كانت هذه العلاقات مطابقة للقوانين العقلية كانت أجمل."[3]

---

1)- السابق،194/01.

2)-دلائل الإعجاز: للجرجاني،54/01.

3)- الأسس الجمالية في النقد العربي: لعز الدين إسماعيل، ص: 201.

و إن أردت أن ترى ذلك عيانا فاعمد إلى إي كلام شئت، و أزل أجزاءه عن مواضعها وضعها وضعا يمتنع معه دخول شيء من معاني النحو فيها فقل في:

قفا نبك من ذكرى حبيب و منزل، من نبك قفا ذكرى و منزل، ثم انظر هل يتعلق منك فكر بمعنى كلمة منها. (1)

فهل معنى هذا أن المقصود بالقوانين العقلية، قواعد النحو التي بها يميز الكلام السليم من الفاسد و التي راعاها امرؤ القيس في بيته، أم أنها شيء آخر؟

يرى الجرجاني أن إفساد النظام بالتقديم و التأخير قد يفسد المعنى، و إن استقام نحويا،و بالتالي لا نحكم على اللفظة خاصة و التركيب –عامة– بالجمال. (2)

أ*– جمالية البيت:

و قد ترتب عن هذا المفهوم الأول الذي عرضنا له في الأسطر السابقة مفهوم آخر؛ هو أن المعنى مرتبط بالتركيب و علاقة الألفاظ بعضها ببعض، و قد يختل هذا المعنى إذا أخللنا بالتركيب.

يقول العسكري مؤسسا لهذا المفهوم:" أن تعكس الكلام فتجعل في الجزء الأخير منه ما جعلته في الأول، و بعضهم يسميه التبديل و هو قول الله عز و جل " يخرج الحي من الميت، و يخرج الميت من الحي"(3).فلا شك أن اقتضاء الترتيب الأول معنى معينا، ينشأ عنه تغير هذا المعنى في الترتيب الثاني."و قد اتخذه الآمدي(4) أساسا للحكم بالجمال أو القبح حين عرض لقول أبي العتاهية:

كم نعمة لا يستقل بشكـــــرها * * * لله في طي المكـــاره كـــامنة

و فضل عليه قول الطائي:

قد ينعم الله بالبلوى و إن عظمت * * * و يبتلي الله بعض القوم بالنعم.

---

1)–دلائل الإعجاز: للجرجاني،303/01.

2)– نفسه: ص:92– 665.

3)–الصناعتين: للعسكري، ص:192.

4)–الموازنة: للآمدي، ص: 87.

يقول الآمدي معللا: " أخذه الطائي فقال و أحسن لأنه جاء بالزيادة التي هي عكس الشيء الأول."[1]

و قد تنتهي هذه القضية إلى تقرير ميزة محببة في الشعر لدى العرب جميعا، ناهيك عن نقادهم ألا و هي رد العجُز على الصدر.

يقول النويري:" هو كل كلام منثور أو منظوم يلاقي آخره و أوله، بوجه من الوجود."[2]

و يكشف ابن رشيق عن روعته البلاغية؛ فيقول بعد تعريفة:"... و يكسب البيت الذي يكون فيه أبهة و يكسوه رونقا و ديباجة، و يزيده مائية و طلاوة." [3]

و يقول العسكري:"... حتى لو سمعت شعرا أو عرفت رواية ثم سمعت صدر بيت منه وقفت على عجزه قبل بلوغ السماع إليه، و خير الشعر ما تسابق صدوره و أعجازه."[4]

كما قد يسميه بن رشيق باسم آخر (التسهيم) إضافة إلى التصدير أو التو شيح فيقول:

" و سر الصنعة في هذا الباب أن يكون معنى البيت مقتفيا قافية و شاهدا بها، دالا عليها كالذي اختاره قدامة للراعي:

و إن وزن الحصى و وزنت قومي * * * وجدت حصى ضريبتهم رزينا." [5]

و يقول الآمدي بعد أن يورد أمثلة لرد العجُز على الصدر:" هذا هو الكلام الذي يدل بعضه على بعض، و يأخذ بعضه برقاب بعض، إذا أنشدت صدر البيت علمت ما يأتي في عجُزه، فالشعر الجيد –أو أكثره –على هذا مبني"[6] هذا اختيار الجاحظ في بلاغة الكلام عند بن المقفع إذ يروي عنه:"أن خير أبيات الشعر؛ البيت الذي إذا سمعت صدره عرفت قافيته."[7]

---

1)-السابق،ص:364.

2)-نهاية الأرب في معرفة أخبار العرب: للنويري، طبعة دار الكتب المصرية –القاهرة– 1933، 07/ 109.

3)-العمدة: لابن رشيق: 04/02.

4)-الصناعتين: للعسكري، ص:302

5)-العمدة: لابن رشيق، 26/02.

6)-الموازنة: للآمدي، ص:364.

7)- البيان و التبيين: للجاحظ، 76/01.

فكل بيت يشكل حلقة ترتبط بما بعدها و بما قبلها بالقافية، مما يجعلها ضرورة ملحة في القصيدة، تتشتت دونها الحلقات، و يختل نظامها، لذلك كانت عناية النقاد بأصغر وحدة في هذا الكل، أكثر من احتفالهم بالقصيدة، و انصب بحثهم عن بيت[1] القصيد، و البيت المستقل بنفسه دون أن ينفصم عن غيره من الحلقات، و ربما لذلك سمي بيتا و سمي آخره قافية، فكأنه يقتفي آثار ما بعده.

يقول ابن سلام في الفرزدق:"كان الفرزدق أكثر شعراء عصره بيتا مقَلّدا، و البيت المقَلّد- عنده- هو البيت المستغني بنفسه، المشهور الذي يضرب به المثل."[2]

و يقول عز الدين إسماعيل:" و يتبع ذلك أن ينصرف الشعراء إلى عمل البيت المقلد؛ أي عمل الوحدة لا عمل القصيدة، فتواجههم صعوبة جمع المعنى في البيت الواحد ذي الألفاظ القليلة، و هنا يظهر مبدأ الإيجاز."[3]كمبدأ مستقل، و تعريف معتمد للبلاغة فقد "أصبح البليغ لا يسمى بليغا إلا إذا جمع المعنى الكثير في اللفظ القليل."[4]

---

1)- ينظر بدايات النظر في القصيدة: قان جيلدر، ت/ عصام بهي، فصول المجلد 06، العدد 2، يناير- فبراير-مارس 1986.

2)-طبقات فحول الشعراء: لابن سلاّم، 360/02-361.

3)-الأسس الجمالية: لعز الدين إسماعيل، ص: 206-207.

4)-البيان و التبيين: للجاحظ، 04/01.

و نحن إذا رجعنا إلى إسهامات خلفاء بني العباس، نجد هذه المعيارية الجمالية، التي أشرنا إليها عند بلاغيينا، و نقادنا؛فكثيرا ما كان يسأل الخلفاء العباسيون الرواة عن أشعر بيت، و أخلب بيت و أهجى بيت،حتى رأى بعض الدارسين أن هذا السؤال لم يكن " وليد اعتقاد بأن البيت هو الوحدة الشعرية، و إنما كان وليد البيئة التي تعتمد على الحفظ و على الاستشهاد و التمثل بالأبيات المفردة السائرة.... و سيكون النظر إلى البيت المفرد السائـــر أو الأبيات المفردة السائرة محكّمًا للجودة ما دام الحفظ لا يسمح بتصور القصيدة جميعا."[1]

و إن كان النظر إلى الرأي النقدي محكوم بأطر تاريخية و بيئية و حضارية " فالخطأ الأكبر في قراءة شعر هو أن نبحث عما ليس فيه، يتحتم عندئذ أن نشعر بخيبة الأمل،و قد لا نعرف كم خسرنا برفض هذا الشعر."[2]

و هو ما يمكن سحبه على الرأي أو الإسهام النقدي،الذي ســنرى أن أصــحابه مــن الخلفــاء العباسيين لم يكونوا يطلقون هذه الأحكام التعميمية جدا" الخاطئة في أساسها." [3]

و أن الخطأ إنما يكمن في محاسبتهم وفق معايير نقدية لاحقة، و غريبة عــن بــديهيات النقــد العربي...الذي فصلنا –سلفا– القول في تصوره لجمالية البيت كوحدة أساسية للقصيدة.

و قد رأينا أن استحسان الخليفة المهدي لبيت الأحوص إنما نشأ عن بحثه عن مبدأ التكافؤ بــين وحدات اللغة، و ما إبداؤه عدم رضاه عن الأبيات الأخرى إلا لغياب هذا المبدأ[4]

فالحكم النقدي إذن و إن بدا غير مؤسس إلا أنه في الحقيقة يستند إلى مزية إبداعية، مما يجعلــه يدور معها وجودا و عدما،و عليه يمكن أن نقول كما قال مصطفى الشكعة:" أما أن هناك أمدح بيت في الشعر العربي أو أهجى بيت إلى آخر هذه القصة التي تتكرر كثيرا عند النقاد القــدماء فذلك أمر يمكن الاستئناس به و لكن لا يعول عليه."[5]دون أن يعني ذلــك رمــيهم بالخطــأ، و التعميم، و قلة العلم بالشعر بل هذا هو الخطأ نفسه و التعميم ذاته..

---

1)– تاريخ النقد الأدبي عند العرب: لإحسان عباس، ص:46.

2)– جماليات القصيدة التقليدية بين التنظير النقدي و الخبرة الشعرية: لشكري محمد عياد:فصول مجلة النقد الأدبي مجلد 06 ع 02،يناير ،فبراير ،مارس1986.

3)– الحياة الأدبية في مجالس الخلفاء العباسيين حتى نهاية ق 3هــ: لمصطفى البشير قط، ص: 133.

4)–ينظر المبحث السابق" الإيقاع المكاني".

5)–الشعر و الشعراء في العصر العباسي: د/ مصطفى الشكعة، دار العلم للملايين– بيروت– ط05 ، 1980،ص: 232.

❖ ***العكـــــــس:***

يقول صاحب خزانة الأدب " و في الاصطلاح تقديم لفظ من الكلام ثم تأخيره و يقع على وجوه كثيرة و لكن المراد هنا استعمل منها و كثر استعماله."[1]

و يروي لأمير المؤمنين هارون الرشيد من النظم في هذا الباب

لســـانـــــــي كتوم لأسرارهم * * * و دمعي بسري نموم مذيع

فلو لا دموعي كتمت الهوى * * * و لولا الهوى لم يكن لي دموع[2]

و نحن إذ نقرأ هذين البيتين نستحضر قول ابن الأثير في تفاوت التفاضل في تركيب الألفاظ و أنه إذا فكرت " لم تجد للألفاظ مزية ظاهرة إلا لأمر يرجع إلى تركيبها". [3]

و نظمها وفق نظام خاص بحيث قدم و أخر، و راعى المعاني التي يلائم بعضها بعضا في السبك. [4]

فجمع بين

" **لساني كتوم لأسرارهم** و **دمعي بسري نمـــــوم**

و بين: **لولا دموعي كتمت الهوى** و **لولا الهوى لم يكن لي دموع**

ثم راعى تقسيم الإيقاعات الزمنية حين قدم:" بسري" لتوافق "كتوم " ضدها "نموم "كما راعـــى الإيقاع المكاني لما جعل معنى الشطر الأول مقابلا معنى الشطر الثاني مع استقلال كـــل بيـــت بمعناه.و تفرده عن سابقه، إضافة إلى رد آخر كل منها على أوله، و لذلك جاء عن المأمون أنه لا أحد أفرس منه بالشعر" و إنا لننشد أول البيت فيسبق آخره من غير أن يكون سمعه"[5]

و عن عمارة ابن عقيل قال" أنشدت المأمون قصيدة فيها مديح له فيها مائة بيت فابتدأت بصدر البيت فبادرني إلى قافيته"

و فيها أنه قال له" هكذا ينبغي أن يكون "[6]

فالشعر –حسب المأمون– لا بد أن يكون محكم النظم يدل أول حرف منه على قافيته.

---

1)–خزانة الأدب: للبغدادي، 354/01.

2)– ينظر نفسه: 01/ 355.

3)–المثل السائر: لابن الأثير، 152/01.

4)–نفسه: 151/01.

5)–الأذكياء: لابن الجوزي، ص:39–40.

6)–الحياة الأدبية في مجالس الخلفاء العباسيين(حتى نهاية ق 3هـ): مصطفى البشير قطص:121.

ب*- جمـــاليـــة القـــصيـــدة:

للمستشرق فان جيلدر بحث قيم حول بدايات النظر في القصيدة العربية[1] جمع فيه آراء النقـــاد العرب القدماء في ترابط القصيدة ووحدتها سواء عند الذين لم يدركوا عصر التـــدوين أو عنـــد أوائل النقاد العرب و شعرائهم الذين دونوا آراءهم النقدية، كما يطرح أهـــم قضـــاياهم النقديـــة كالطول و التناسب و الترابط و يقف عند مطالع القصيدة العربية و افتتاحياتها، و أبيات الانتقال أو التخلص متتبعا آراء كل من الجاحظ و ثعلب و ابن المعتز و إسحاق ابن إبراهيم، ثـــم ابـــن طباطبا.و هو يرى أن العـــرب كانـــت لا تحكـــم علـــى القصـــيدة إلا و هـــي تتمثـــل البيـــت المفرد"فالقصيدة تمتدح أو تذم في مصطلحات فجة و عامة دون تحفظ أو على أساس من بيـــت مفرد و المثل المشهور هو حكاية انتقاد أم جندب."[2] التي حكمت لعلقمة و على زوجها امرئ القيس بسبب بيت واحد.

و من المصطلحات التي يعرض لها تاريخيا مصطلح القران و المطالع،و أبيات الانتقال أو التخلص.و هي مصطلحات يمكن أن نجد لها بدايات في إسهامات الخلفاء العباسيين النقديـــة، كمعيارية جمالية يحكم من خلالها للقصيدة أو عليها.

1*-الابتداء وحسن الافتتاح:

و يمكن -قبل ذلك- أن نشير إلى رأي الجاحظ كأحد أبرز نقاد العصر العباسي و انتصاره للابتداء و حسن الافتتاح،و يظهر ذلك منه خاصة إذا ساق فعل المطلع الحسن و تأثيره العجيب في الخليفة إشارة منه إلى الذوق العالي الذي طبع به الخلفاء عند تلقيهم الشعر و إن قرن ذلك بكلام طويل لإبراهيم أبي هانىء في ما يجب لصاحب كل صنعة من اللباس و السمت والهيئة[3]

---

1)- بدايات النظر في القصيدة: لفان جيلدر ترجمة عصام بهي، فصول مجلة النقد الأدبي :مجاد06،ع02،يناير،فبراير،1986.

2)-نفسه.

3)-البيان و التبيين:للجاحظ، 01/ 64- 65- 66.

كما يروي صاحب المثل السائر عن المعتصم أنه" لما فرغ من بناء قصره بالميدان جلس فيه، و جمع أهله و أصحابه و أمرهم أن يخرجوا في زينتهم فما رأى الناس أحسن من ذلك اليوم، فاستأذن إسحاق ابن إبراهيم الموصلي في الإنشاد فأذن له فأنشد شعرا حسنا أجاد فيه إلا أنه استفتحه بذكر الديار و عفائها فقال:

يا دار غيرك البلى و محاك * * * يا ليت شعري ما الذي أبلاك

فتطير المعتصم بذلك، و تغامز الناس على إسحاق كيف ذهب عليه مثل ذلك مع معرفته، و عمله و طول خدمته للملوك... ثم أقاموا يومهم و انصرفوا فما عاد منهم اثنان إلى ذلك المجلس، و خرج المعتصم إلى سر من رأى و خرب القصر."[1]

و لعل اعتناء العرب بالافتتاح و تخير القصائد الحسنة المطلع، يرتبط ارتباطا وثيقا بحالة نفسية اشتهرت عندهم، أقصد التطير،و إن ذهب فريق من القدماء كأبي عمرو والأصمعي إلى أن اختيار المطلع إنما يكون للتنبؤ[2] أخذا بتعريف ابن المقفع للبلاغة و الفصاحة" و ليكن في صدر كلامك دليل على حاجتك كما أن خير أبيات الشعر البيت الذي إذا سمعت صدره عرفت قافيته." [3]

و إن كان كل من التطير و التنبؤ يرجعان إلى حالة نفسية واحدة؛ فالتطير هو نوع من التنبؤ، إذ يحصل اعتراضا على عدم تناسق حاصل في الطبيعة، أو عند تعارض الظواهر الكونية مع الرغبات النفسية التي يحتاج الإنسان في بعض المراحل الحرجة توافقها لتولد طاقة تؤهلها للإقدام، فالحرب و السفر، و طلب الرزق من تجارة أو صيد أو نحوه عمل يحتاج إلى طاقة نفسية و جسدية تدفع القلق و الخوف المبثوث طبيعة في البشر عند اقتحام المجهول، و هو ما ينقضه الاصطدام المباشر بظاهرة معينة أو صورة قد تشي بكشف الغيب و هتك أستاره، لذلك أعتبر عند تعمده- في فن القول- جهلا بالبلاغة و الظرف،و حسن الأدب، التي يقتضي مراعاة المقام و إنزال المقال منزلته و لذلك- كما أسلفنا- اعتنى الجاحظ بالمطلع الحسن و عده من أصول صناعة الشعر. [4]

1- المثل السائر: لابن كثير، 02/ 231.

2- بدايات النظر في القصيدة: لقان جيلدر، ترجمة عصام بهي: فصول مجلة النقد الأدبي :مجاد06،ع02،يناير،فبراير،1986.

3)-البيان و التبيين: للجاحظ،76/01.

4)-نفسه: 01/ 64- 65- 66.

يقول ابن الأثير:"فإذا أراد الشاعر أن يذكر دارا في مدحه فليذكر كما ذكر أشجع السلمي حيث قال: قصر عليه تحية و سلام * * * خلعت عليه جمالها الأيام

و ما أجدر هذا البيت بمفتتح شعر إسحاق ابن إبراهيم الذي أنشده للمعتصم فإنه لو ذكر هذا أو جرى مجراه لكان حسنا لائقا"[1] ثم تعداهما إلى ذكر الأماكن وأسماء النساء وما يستحسن منها و ما يقبح. [2]

و من محاسن الابتداءات التي دلت على المعنى-أي حققت التنبؤ و وافقت المقام- من أول بيت في القصيدة... ما ذكره المبرد و نقله عنه صاحب المثل السائر من " أن هارون الرشيد غزا غزوة في بلاد الروم و أن نقفور ملك الروم خضع و بذل الجزية فلما عاد عنه و استقر بمدينة الرقة و سقط الثلج نقض نقفور العهد فلم يجسر أحد على إعلام الرشيد لمكان هيبته في صدور الناس و بذل يحي بن خالد للشعراء الأموال على أن يقولوا أشعارا في إعلامه فكلهم أشفق من لقائه بمثل ذلك إلا شاعرا من أهل جدة يكنى أبا محمد و كان شاعرا مفلقا فنظم قصيدة و أنشدها الرشيد أولها:

نقض الذي أعطيته نقفور * * * فعليه دائرة البوار تدور

أبشر أمير المؤمنين فإنه * * * فتح أتاك به الإله الكبير

فلما أنهى الأبيات قال الرشيد أو قد فعل ثم غزاه في بقية الثلج و فتح مدينة هرقلة" [3]

و الملاحظ على البيتين أنهما اعتبرا مطلعا من حيث معناهما، لا من جهة لفظيهما، فقد قدر الشاعر حالة نفسية معينة بنى عليها طريقة إلقاء خبره إلى الرشيد،فجمع بين الدعاء له، و الدعاء على أعدائه، و بين الخبر و البشارة مهونا من شأن الفعل" نقض" و مؤكدا لفعل " المنح" " أعطيته" حتى لا يهول على الرشيد الأمر، و يبعث في نفسه توقع الشرو لذلك أشفق من حضر من الشعراء، و بذل لهم يحي بن خالد من المال ما بذل.

كما يدل الخبر على إدراك كل من المبدع و المتلقي لأثر هذه المعيارية الجمالية في الأثر الأدبي، و تقويم النصوص على أساسها.

بل قد يعدو سلطان الشاعر، سلطان القاضي في حد ذاته فتطير رؤوس و تزهق دماء إذا أحسن الابتداء، و روعي المقام.

---

1)- المثل السائر: لابن الأثير، 231/02.

2)- نفسه: 228/02.

3)-نفسه: 231/02.

يقول ابن الأثير نقلا عن الأغاني[1]: " قدم سديف من مكة إلى الحيرة و السفاح بها،و وافق قدومه جلوس السفاح للناس، و كان بنو أمية يجلسون عنده على الكراسي تكرمة له فلما دخل عليه سديف حسر لثامه و أنشده أبياتا من الشعر فالتفت رجل من أولاد سليمان بن عبد الملك و قال لآخر إلى جانبه:" قتلنا و الله العبد"، فأخرجوا من بين يديه و قتلوا عن آخرهم و كتب إلى عماله بالبلاد يأمرهم بقتل من وجدوه منهم و من الأبيات:

أصبح الدين ثابتا في الأساس * * * بالبهاليل من بني العباس

أنت مهدي هاشم و هداها ** * كم أناس رجوك بعد إياس

لا تقلين عبد شمس عثارا * * * و اقطعن كل رقلة و غراس

أنزلوها بحيث أنزلها الله *** بدار الهوان و الإتعاس

خوفهم أظهر التودد فيهم * * * و بهم منكم كخر المواس

أقصتهم أيها الخليفة و احسم * * * عنك بالسيف شأفة الأرجاس

و أذكرن مصرع الحسين و زيد * * * و قتيلا بجانب المهراس

و قد ساءني و ساء سوائي * * * قربهم من منابر و كراس

إذن، لم يكن نقد الخلفاء العباسيين دائما جزئيا منصبا على البيت المفرد، أو الأبيات السائرة، لأن الافتتاح لا يقتصر على اللفظ كما رأينا، بل يجاوزه إلى المعنى.

---

1)- السابق: 02/ 231.

2*-الصياغة وجودة المعاني:

و هو ما تبلور فيما بعد عند المهدي و الرشيد، فقد أنشد عكاشة بن عبد الصمد المهدي قصيدة له في وصف الخمر فقال له المهدي:" لقد أحسنت في وصفها إحسان من قد شربها." (1) فالمهدي يحكم على القصيدة كلها- لا بيت واحد فيها- بالجودة، معللا ذلك بأن الشاعر وصف الخمر وصفا لا يمكن أن يصدر عن خياله، و إنما هو صادر عن تجربة و وليد واقع، و هو حكم يتضمن إشارة إلى تلك العلاقة بين الواقعية و الوصف، فلا يمكن أن تتوفر جودة الوصف لشاعر لم يعايش التجربة.

و للرشيد بعده لمحات صائبة تدل على شمول نقده القصيدة، و تؤكد حسه النقـدي، فقـد روى الأصمعي قال:"دخلت أنا و إسحاق الموصلي يوما على الرشيد فرأيناه لقس النفس فأنشده إسحاق يقول:

و آمرة بالبخل قلت لها اقـصري * * * فذلك شيء ما إليه سـبـيل
أرى الناس خلان الكرام و لا أرى * * * بخيلا له حتى الممات خلـيل
و إني رأيت البخل يزري بـأهله * * * فأكرمت نفسي أن يقال بخيـل
و من خير حالات الفتى لو علمته * * * إذ نال خيرا أن يكون ينيـل
فعالي فعال المكثرين تجمـلا * * * و مالي كما قد تعلمين قلـيل
و كيف أخاف الفقر أو أحرم الغنى * * * و رأي أمـير المـؤمنين جميل.

قال: فقال الرشيد لا تخف إن شاء الله، ثم قال:لله در أبيات تأتينا بها، ما أشد أصولها و أحسن فصولها و أقل فضولها(2)

و في رواية أخرى أن الرشيد قال:" هذا و الله الشعر الذي صحت معانيه، و قويت أركانه و لذ على أفواه القائلين و أسماع السامعين."(3)

و تكمن قيمة هذا الحكم النقدي في إشارات هارون إلى إتقان الصياغة و جودة المعاني،و حسن المخرج و الوقع إضافة إلى ما قدم به الأصمعي من ذكر الحالة النفسية التي لم يغفل علىإسحاق مراعاتها و إن لم يقف –الرشيد- عند مظاهر الجمال.

---

1)- الأغاني: لأبي الفرج الأصفهاني، 03/ 261- 262.
2)- نفسه: 05/231-232.
3)-المحاسن و المساوىء: للبيهقي، ص: 436.

كما نجد مثل ذلك عند المأمون ، حينما عد قصيدة لزياد الأعجم [1] أرق قصيدة و حكم لبيت من أبياتها بأنه أجود بيت فيها و هو قوله:

هلا أتته وفوقه بزاته * * * يغشى الأسنة فوق نهد قارح

لأنه يتهدد الموت، و يتحداه و لو أن المأمون لم يعلل سبب حكمه للقصيدة بالرقة، و لم يبن مواطن الرقة فيها، مما يجعلنا نعد حكمه هذا حكما عاما تأثريا.

3*-الحكم على الشاعر:

و قد انتقل الحديث عن القصائد و النظر فيها إلى الحكم على الشاعر عامة كقول المعتصم و قد أعجب بقصيدة أبي تمام في فتح عمورية.

السيف أصدق أنباء من الكتب

" لقد جلوت عروسك يا أبا تمام فأحسنت جلاءها " [2]

فتشبيهه القصيدة بالعروس يحيلنا إلى ما شاع عن أبي تمام من حبه للتصنع و التكلف تماما كالعروس ليلة عرسها تطلب الزينة، بشتى الوسائل، و هو أشبه بالحديث عن الطابع العام للشاعر.

و يمكن ملاحظة مثل ذلك عند الواثق الذي أثر عنه أنه قال في قصيدة للحسين ابن الضحاك التي أولها[3]

ألم يرع الإسلام موت نصيره * * * يلحق أن يرتاع من مات ناصره.

" إن كان الحسين لينطق عن حسن طوية و يمدح بخلوص نية."

فقد لمس الواثق في قصيدة الحسين ما لم يلمس في سواها، من صدق الشعور و حرارة العاطفة و هو إطراء و حث من جهة و تعريض بمن أحاط به من المداهنين و المتكسبين من جهة أخرى مما يبين لنا حقيقة أن الخلفاء العباسيين لم يقتصروا على البيت المفرد بل تجاوزوه إلى النظر في القصيدة و من ثم إلى مذهب الشاعر العام حتى شاع ذلك عنهم،و أصبح الشعراء يتحدثون عن مذاهبهم في الشعر.

---

1)- فوات الوفيات:لابن شاكر الكتبي، تحقيق د/إحسان عباس ،دار الثقافة -بيروت- 1974 ،30/02-31.

2)-زهر الآداب وثمر الألباب: للحصري أبي إسحاق إبراهيم بن علي بن تميم ،نشره د/ زكي مبارك ،دار الجيل -بيروت-ط04.د.ت، 02/ 432.

3)-الأغاني: لأبي الفرج الأصفهاني، 07/174-175.

يقول أبو الفرج الأصفهاني في معرض حديثه عن اتصال منصور النمري بالرشيد[1]:" فأذن له في القدوم فحظي عنده و عرف مذهب الرشيد في الشعر و إرادته أن يصل مدحه إياه بنفي الإمامة عن ولد على بن أبي طالب عليهم السلام و علم مغزاه في ذلك مما كان يبلغه من تقديم مروان ابن أبي حفصة و تفضيله إياه على الشعراء في الجوائز"

فهذا الشاعر قد فطن لمذهب هارون فانتهجه، و سدد وقارب حتى ينال عنده الحظوة و إن كان أبو فرج ذاته يورد ما يناقض ما ساقه آنفا حين يقول:" و أنشد منصور النمري قصيدة مدحه بها- الرشيد- و هجا آل علي و ثلبهم فضجر هارون و قال له يا ابن اللخناء أتظن أنك تتقرب إلي بهجاء قوم أبوهم أبي و نسبهم نسبي و فرعهم فرعي."[2]

و لعل سبب ذلك فيما يبدو هو مبالغته وتحريه ما ظن أنه مذهب هارون و تعديه الحد في ذلك مما استوجب رده و زجره.

تماما كما حدث مع نفر من الشعراء فيهم رجل من ولد زهير ابن أبي سلمى فأفرط في مدحه حتى قال فيه:" فكأنه بعد الرسول رسول مجاراة لمذهبه و تحمله أن يمدح بما تمدح به الأنبياء و عدم إنكاره ذلك."[3]

و إن كان صاحب العقد الفريد يزري بهذا المبدأ حين يروي أن الرواة و الشعراء،كانوا يجارون المتوكل في سوء ذوقه بعد أن علموا فساده[4].

مما عزا ببعض الباحثين إلى صرف النظر عن هذه الإسهامات ابتداء من المتوكل [5]

---

1)-السابق: 13/ 158.

2)-نفسه: 161/13.

3)-نفسه: 13 /161.

4)- ينظر العقد الفريد: لابن عبد ربه، 131/02، و طبقات النحويين واللغويين: للزبيدي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف- مصر- 1973، ص: 90- 91.

5)-الحياة الأدبية في مجالس الخلفاء العباسيين حتى نهاية القرن 3 هـ: لمصطفى البشير قط. ص: 138.

غير أننا نسجل في الأخير حقيقة أن الإسهام النقدي لهؤلاء الخلفاء لم يقتصر على النظر في قصائد من حضرهم من الشعراء بل تعداهم إلى سواهم فقد فضل هارون الرشيد مرثية أبي موسى التيمي في يزيد من مزيد و قال للراوية " هي أحب إلي من هذه " يعني مرثية مروان بن أبي حفصة في معن بن زائدة، و" بكى بكاء اتسع فيه حتى لو كانت بين يديه سكرجة لملأها من دموعه"[1] فقد أدرك هارون، ما انطوت عليه القصيدة من صدق،و حرارة عاطفة، فتفاعل معها، و جاراها و بكى و اتسع فيه.

---

1)-الأغاني: لأبي الفرج الأصفهاني، ص: 20/56-57.

الفصـــــل الثاني

المعيارية الأخلاقية في إسهامات خلفاء بني العباس النقدية

1-* وظيفـــة الشعـــر الأخـــلاقيـــــة

2-* المعيـــارية الأخـــلاقية في نقد الأغراض

أ*- المـــــــــــــدح

ب*- الغزل و النسيب و التشبيب

ج*- الهـــــجـــــاء

د*- الرثاء و الزهد و الحكمـة.

لقد عرفنا في الفصل السابق أن الموقف الجمالي يدربنا على التركيز و الانتباه إلى العمل الفني، فيحثنا على النظر لذاته فحسب، و يدعونا إلى الاهتمام بخصائصه الباطنية و قيمتها في ظل معيارية محددة تنتهج الحياد و تتحري الصواب دونما أحكام مسبقة، و سنعرض في هذا الفصل إلى معيارية أخرى تهتم بالعلاقات بين العمل الفني و أشياء أخرى، فتنظر في تأثير العمل الفني على السلوك، و على غيره من نظم المجتمع و أوضاع الحياة عامة، ألا و هي المعيارية الأخلاقية سنأخذ الأمر ببساطة، و ننظر إلى ما بين أيدينا من إسهامات نقدية في ضوء الدور التكاملي بين الجمال و الأخلاق، "لأن مشكلة العلاقة بين الجمال،و الأخلاق مشكلة مطروحة على بساط البحث منذ أفلاطون إلى الوقت الحاضر بين الفنانين و النقاد و الفلاسفة."[1]

و لأن الهدف هو وحدة الإنسان، و في الحياة متسع لكل من الأخلاق و الفن[2]النقد بصفة عامة بسيط و معقول و منظم، و هو عادة يصف و يقيم و يوضح الأعمال الأدبية المميزة و المعقدة" و لكن الناقد قد يكون مهتما بعمله النقدي إلى أقصى حد، أو يشعر بحساسية شديدة نحو العمل الأدبي الذي يقوم بنقده فنجده في الحالة الأولى يقوم بعملية تصنيف و تنظيم على حساب العمل الأدبي...أو يطغى حساسية على القواعد النقدية التي يحاول تطبيقها في الحالة الثانية." [3]

---

1)-العلاقة بين الجمال و الأخلاق في مجال الفن: د/ رمضان الصباغ عالم الفكر المجلد 27، العدد 1، يوليو/ سبتمبر1998، ص:85.

2)-نفسه: ص: 86.

3)-المدخل في النقد الأدبي: لنجيب فايق أندراوس، مكتبة الأنجلو مصرية1974، ص:07.

1/ الوظيفة الأخلاقية للشعر:

لقد اختار بعض النقاد العرب الشعر و فضلوه على غيره من ضروب الفن لأنه" يفيد في حث الشجاع و إثارة النخوة في الكريم أو لأنه معتدل يفيد في تربية الأبناء و تأديب الشداة"[1] فقد جمع المفضل الضبي و أصحاب الحماسات مجموعات شعرية مختارة وفق هذا الأساس التربوي، يقول ابن قتيبة رواية عن عمرو بن العلاء:" كان عمرو بن العلاء يستجيد للمثقب العبدي قصيدته التي منها:

فإما أن تكون أخي بحق *** فأعرف منك غثي من سميني

و إلا فاطرحني و اتخذني * * * عدوا أتقيك و تتقيني

و يقول"لو كان الشعر مثلها لوجب على الناس أن يتعلموه."[2]

و لا يخفى ما في هذين البيتين من تمجيد للصدق الأخوي، و ما يقتضيه من بعد عن المداهنة و المواربة و النفاق، و هي صفات استهجنتها العرب، و بالغ في التعريض بأصحابها الدين الإسلامي فيما بعد.

و يظهر ابن قتيبة انتصاره لضرورة حمل الشعر رسالة و معنى عندما يعقب على أبيات[3]:

و لما قضينا من منى كل حاجة * * * و مسح بالأركان من هو ماسح

و شدت على حدب المهاري و حالنا * * * و لم يعرف الغادي الذي هو رائح

أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا * * * و سالت بأعناق المطي الأباطح

بقوله: "إذا أنت فتشته – هذا النص– لم تجد هناك فائدة في المعنى" و إن اعترف له بحسن المخرج، و سلامة التقسيم، إلا أنه من حيث المعنى لا يرقى لأن يكون شعرا يستحق التداول و التمثيل.

---

1)- الأسس الجمالية للنقد العربي: لعز الدين إسماعيل، ص:152.

2)- الشعر و الشعراء: لابن قتيبة، ص: 233-234.

3)-نفسه: ص: 08.

و إن كان هذا الربط بين المنفعة و الجمال يرجع بنا إلى سقراط و رأيه البارز في أن كافة الأشياء النافعة أشياء جميلة و خيرة ما دامت تمثل موضوعات صالحة للاستعمال،و الجمال صورة من صور المنفعة. (1)

و نجد هذا المفهوم عند الرشيد واضحا، إذا تعلق الأمر بتأديب أبنائه و تربيتهم على أخلاق فاضلة، فعن عيسى قال حدثنا الزبير قال حدثني عمي عن أبيه قال:" قال الرشيد يوما لجلسائه أنشدون شعرا حسنا، في امرأة خفرة كريمة، فأنشدوا و أنا ساكت فقال لي إيه يا بن مصعب أما إنك لو شئت لكفيتنا سائر اليوم فقلت نعم يا أمير المؤمنين لقد أحسن محمد ابن بشير الخارجي حيث يقول:

بيضاء خالصة البياض كأنها * * * قمر توسط جنح ليل مبرد

موسومة بالحسن ذات حواسد * * * إن الحسان مظنة للحسد

و ترى مدامعها ترقرق مقلة *** حوراء ترغب عن سواد الإثمد

خود إذا كثر الكلام تعوذت * * * بحمى الحياء و إن تكلم تقصد

لم يطغها شرف الشباب و لم تضع * * * منها معاهدة النصيح المرشد

و تبرجت لك فاستبتك بواضح * * * صلت و أسود في النصيف معقد

و كأن طعم سلافة مشمولة * * * بالريق في أثر السواك الأغيد

فقال الرشيد هذا و الله الشعر لا ما أنشدتمونيه سائر اليوم ثم أمر مؤدب ابنيه محمد الأمين و عبد الله المأمون فروى لهما الأبيات.

فمفهوم الشعر الحسن عند الرشيد، هو ما راعى الحياء، و لم يخدش الحشمة و حافظ على التقاليد العربية الإسلامية، التي ترتقي بالمرأة عن الترجل و تصدر المجالس، و الانخلاع عن الآداب و الأخلاق العربية و الإسلامية.

إن القصيدة التي استحقت وصف الشعر عند الرشيد هي التي وازنت بين الجمال القلبي و القالبي، و لذلك دفع بها إلى مؤدب ابنيه حتى يشبا على صورة هذه المرأة العربية المسلمة، و يطلبا لها مثلا، زوجا و بنتا.

و لكن هل معنى هذا أن الشعر لا يصلح إلا أن يحمل معنى تعليميا؟ أو أن يدعو إلى خلق فاضل؟ أو أن يوظف خادما للدين؟

---

1)-العلاقة بين الجمال والأخلاق في مجال الشعر: د/ مصطفى الصباغ عالم الفكر، م/27، ع/01، يوليو 1998، ص:90.

لعلنا نتذكر و نحن نجيب عن هذه المسألة حال امرىء القيس مع الصنم الذي استشاره في الانتقام لأبيه.

ثم تنازعنا صورة حسان ابن ثابت و من جرى مجراه من شعراء الدعوة و ما دعوا إليه من فضائل و مواعظ، و حث على العفة و الهمة و المروءة و كيف أنهم لم يستمروا طويلا" بل لعله لم يمتد إلى كل الشعراء العرب الذين عاصروا نشأة الإسلام"[1]

يروي الإخباريون أن النبي –صلى الله عليه و سلم– كان معجبا ببيت طرفة:

ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلا * * * و يأتيك بالأخبار من لم تزود

حتى وصفه أنه من كلام النبوة.

كما أن عمر ابن الخطاب أيضا أبدا موقفا قريبا منه حين أنشده عبد بني الحسحاس

عميرة ودع إن تجهزت غاديا * * * كفى بالشيب و الإسلام للمرء ناهيا

و قال:"لو قلت شعرك مثل هذا لأعطيتك عليه."

لكن الأصمعي يضع بموقفه الشهير من حال الشعر في الإسلام حدا فاصلا بين الشعر كفن قولي، و الدين كتعاليم...ففي خبر لأبي حاتم عنه، قال:" قال لي الأصمعي: شعر لبيد كأنه طيلسان طبري يعني أنه جيد الصنعة و ليست له حلاوة، فقلت أفحل هو؟ قال: ليس بفحل، و قال لي مرة: كان رجلا صالحا ينفي عنه جودة الشعر"[2]

فالأصمعي يفرق بين الشعر الحسن و بين غيره، و يقطع بأن شعر لبيد لا يبلغ به طبقة الفحولة لما فيه من سمات الصلاح و أثر الديانة.

ثم يصرح مرة أخرى في معرض حديثه عن حسان فيقول:"هذا حسان بن ثابت فحل من فحول الجاهلية فلما جاء الإسلام سقط شعره."[3]

و هو هنا و إن لم يصرح كما في الخبر الآتي إلا أنه يجعل الإسلام سببا في ضعف شعره و تدني مستواه الفني....

---

1)–الأسس الجمالية في النقد العربي: لعز الدين إسماعيل، ص152.

2)–طبقات فحول الشعراء: لابن سلام الجمحي، 187/01.

3)–الموشح: للمرزباني، ص:71.

يقول الأصمعي: "شعر حسّان في الجاهلية من أجود الشعر، فقطع متنه في الإسلام لحال النبي-صلى الله عليه و سلم-"[1]

و كذلك ذكر النابغة الذي يروي ابن سلام بيتا من الشعر أنشده الحسن ابن علي بعد اعتناقه الإسلام و هو قوله:

الحمد لله لا شريك له * * * من لم يقلها فنفسه ظلما. [2]

و ممن اشتهر من الأعيان و الشخصيات الدينية بهذا الرأي، في فصل الشعر عن الأخلاق و الدين ابن عتيق، و السيدة سكينة بنت الحسين[3]

و بالمقابل يرى المرزباني أن امرأ القيس لا جدوى من رواية شعره لما فيه من الفجور والعهر[4]

و إن كان قدامة يرى أنه" ليس فحاشة المعنى في نفسه مما يزيل جودة الشعر فيه كما لا يعيب جودة النجارة في الخشب رداءته في ذاته."[5]

فالهدف الأخلاقي لا يشكل ضرورة يقوم عليها العمل الفني و إنما العبرة بتحسين صورته، و إخراجها مبدعا، تماما كالنجارة التي قد يصنع الشيء التافه في صورة جميلة.

"و لو كانت الديانة عارا على الشعر و كان سوء الاعتقاد سببا لتأخر الشاعر لوجب أن يمحى اسم أبي نواس من الدواوين، و يحذف ذكره إذا عدت الطبقات و لكان أولاهم بذلك أهل الجاهلية و من تشهد عليه الأمة بالكفر و لوجب أن يكون كعب وابن الزبعرى.

و أضرابهما ممن تناول رسول الله-صلى الله عليه و سلم-و عاب من أصحابه بكما خرسا و بكاء مفحمين و لكن الأمرين متباينان و الدين بمعزل عن الشعر."[6]

و لكن هل ينسحب الحكم ذاته على الكذب في الشعر؟ أم يشترط في الشاعر الصدق و تحري الحق؟

---

1)-طبقات فحول الشعراء: لابن سلام، ص:27.

2)-نفسه: ص:127/01.

3)-الأغاني: لأبي الفرج الأصفهاني، ص:46/01 و 98.

4)-الموشح: للمرزباني، ص:96.

5)-نقد الشعر: لقدامة ابن جعفر، ص:14.

6)-الوساطة: للجرجاني، ص:50- 51.

يقول ابن رشيق" و من فضائله-الشعر- أن الكذب الذي اجتمع الناس على قبحه حسن فيه"[1]
و لعل هذا الفهم هو ما حدا ببعض الناس إلى الزهد في رواية الشعر حسب رد عبد القاهر حين يقول عنهم:" و لا يخلو من كان هذا رأيه... فهو في ذلك على خطأ ظاهر".[2]
و هو ما يفهم منه أن الدين لا يؤثر على الشعر، و لا يمارس سلطة مسبقة على الشاعر و ربما "رأوا منزع الشر أقرب إلى طبيعة الشعر أو أنه على الأقل مما يحسن به فن الشعر."[3]
و قد رأينا كيف أن المهدي سعى إلى ربط فن الوصف بالواقعية، أو التجربة التي تؤرخ لها القصيدة ،حين قدم شعر أبي نواس في وصف الخمر و لكن قد يتغير الحكم تبعا لتغير الغرض الشعري، أو الشاعر أو مقام الإنشاد و هو ما سنتبعه في المباحث الآتية.

---

1)-العمدة: لابن رشيق، ص: 06.
2)-دلائل الإعجاز: لعبد القاهر الجرجاني، ص:28/1.
3)-الأسس الجمالية: لعز الدين إسماعيل، ص:157.

2/ نقـــــــد الأغراض:

تعد قضية علاقة الشعر بالأخلاق إحدى القضايا التي خاض فيها بعض الخلفاء العباسيين، خاصة إذا تعلق الأمر ببعض الأغراض الشعرية الخادشة للحياء، الهاتكة للأغراض و ما تستوجبه التعاليم الدينية، و الأعراف العربية.

و على الرغم من قلة الأخبار و ندرتها في هذا الجانب، و انعدام نقد مفصل يتسنى لنا من ورائه الحكم على موقف كل الخلفاء العباسيين و إسهاماتهم النقدية وفق المعيارية الأخلاقية إلا أن ما تختزنه كتب الأدب كفيل بتكوين نظرة عن موقف بعض الخلفاء.

أ*- الغـــزل والنسيب والتشبيب:

و من أكثرهم خوضا في هذه المسألة المهدي، الذي وقف من غزل بشار موقفا عدائيا كما يروي صاحب الأغاني[1] فقد نهاه عن ذكر النساء حين رأى نساء البصرة و فتيانها يستهترون بشعره لغيرة شديدة كانت فيه، و تظهر مناقشته لأبي عبيدة عن تبصر و وعي نافذ بدور اللغة في العملية التواصلية، فقد قال له أبو عبيدة مهونا الأمر عليه: ما أحسب شعر هذا أبلغ في هذه المعاني من شعر كثير و جميل و عروة بن حذام و قيس بن ذريح و تلك الطبقة فقال المهدي: ليس كل من يسمع تلك الأشعار يعرف المراد منها و بشار يقارب النساء حتى لا يخفى عليهن ما يقول و ما يريد، و أي حرة حصان تسمع قول بشار فلا يؤثر في قلبها؟ فكيف بالمرأة الغزلة و الفتاة التي لا هم لها إلا الرجال"، ثم أنشد أبياتا تؤكد رأيه.

و هي لمحة ذكية تدل على فطنة هذا الخليفة إلى عنصر اللغة-كما قلنا- كأداة للتوصيل،و ما تتضمنه من إيقاع و سهولة و بعد عن اللغة المعجمية مما يجعل فن الغزل عند بشار أكثر تداولا و تأثيرا في نفوس النساء ناهيك عن نفوس الغزلات منهن.

و يذكرنا هذا الموقف من شعر بشار خاصة دون سواه، موقفا طريفا ينسب لأفلاطون، من آلة الناي التي يرى فيها قدرة خاصة على الغواية، بينما يرى أن الليرا التقليدي و الصنج و مزمار الرعاة هي الآلات المأمونة أخلاقيا خاصة في تعليم الصغار،

---

1)- ينظر الأغاني: لأبي الفرج الأصفهاني،ص: 03/ 215-216-217.

كما ينسب للرواقيين تأكيدهم الدائم على العلاقة بين الإيقاع الشعري، و الأسلوب و بين المفاهيم الأخلاقية. (1)

فكأن المهدي، تمثل هذا الحكم و هو يفرد بشارا عن بقية الشعراء الغزليين، الذين إن كرسوا شعرهم للتشبيب و النسيب بالنساء إلا أن فيهم روحا أخلاقية لا توجد في بشارو غزله، تماما كآلة الليرا،و قد ربط علاقته به على هذا الأساس، فكان إذا قدم عليه و استأذن في الدخول قال الربيع:" قد أذن لك و أمرك ألا تنشد شيئا من الغزل و التشبيب فأدخل على ذلك." (2)

فالمهدي لا يرى في الغزل إلا دعوة إلى نشر الفساد، و إشاعة الفسق و الفجور، و هو-عند بشار- طريق غواية يشجع على إقامة علاقات غرامية خليعة و يحسنها في أعين النساء و يرغب فيها بل و يجعلها مذهبا و دينا يناضل في سبيله و يوقف دونه،يقول بشار بن برد:

قاس الهموم تنل بها نجحا * * * و الليل إن وراءه صحبا

لا يؤيسنك من مخبأة * * * قول تغلظه و إن جرحا

عسر النساء إلى مياسرة * * * و الصعب يمكن بعدما جمحا

فلما قدم عليه استنشده هذا الشعر، فأنشده إياه و كان المهدي غيورا فغضب، و قال:" تلك يا عض كذا من أمه، أتحض الناس على الفجور، و تقذف المحصنات المخبآت و الله لئن قلت بعد هذا بيتا واحد في نسيب لآتين على روحك." (3)

ولا شك أن بشارا في أبياته هذه، قد نزع في الغزل منزعا، تعدى فيه التلميح و الكناية، إلى التصريح و التشخيص، معلنا في صراحة دعوة عارمة إلى الفسوق،و الخلاعة مذهبا يحتمل في سبيله الزجر و التقريع، و لا يؤبه فيه بالسب و الشتم " و إن جرحا" مما استوجب وقفة المهدي تلك و نهره درءا لما قد ينجر عنه من شيوع للفواحش، و هتك للأعراض، و قذف المحصنات...

---

1)- عن العلاقة بين الجمال و الأخلاق في الفن: لرمضان الصباغ، عالم الفكر م/27،ع1، سبتمبر 1998.

2)- الأغاني: لأبي الفرج الأصفهاني، 236/03.

3)- نفسه: 03/ 238.

غير أن هذا الموقف قد لا يفهم في ظل ما رواه الأصفهاني[1] من أن المهدي أرسل إلى رئيس الشرطة يأمره بضرب ندماء المهدي و مغنيه و حبسهم بينما يغرق هو في اللهوو الغناء.

لكن نود أن نغتنم هذه الفرصة لنبرز أهمية الرأي النقدي للمهدي على ضوء الخبر السابق، فقد "يكون القارئ المؤمن أكثر تأهيلا فتضفي قراءته ظلالا على النص لأنه يتوافق أيضا مع إيمانه خارج السياق الشعري... و قد يكون القرار خارجا عن الأدب لكنه عقلي تماما فقد يقرر المرء أن يحد من تعاطفه و ينصرف عن المشاركة الخيالية لصالح عقيدته الدينية أو شرعيته الخلقية...و سيكون القرار مخادعا إذا لم تكن أسبابه واضحة"[2]

و إن كان المهدي واضح الأسباب، فهو لا يرضى بأن توسم مملكته باللهو و تغرق في فوضى جنسية، تجعل المتورع شاذا، و الشاذ سويا، و لا يعني إباحته لنفسه، رضاه بأن يكون عاما في مجتمعه... و هو اقتناع دعا إليه أفلاطون عندما جعل التقليد المتكرر طبيعة ثانية، و" التعود على الاستمتاع الخيالي بعواطف معينة في الأدب سوف يقوي عواطف مماثلة في الحياة." [3]

و من هنا يتميز الحكم أو الإسهام النقدي للخليفة-عامة- من حيث ما يتنازعه من قوى مؤثرات و ما يتجاذبه من مرجعيات، و مواريث قد تبدو متباينة فتبعث فينا انطباعا بلا جدوى هذه التعقيبات أو الممارسات النقدية.

إن الإنتمائية العربية قد تتيح للمهدي التغافل عن غزل بشار الذي و إن يلغ شأوا في الإقذاع، إلا أنه ما زاد عن خلاعة و استهتار امرىء القيس، بيد أن الإنتمائية الإسلامية لا تجيز له ذلك بل تدق ناقوس الخطر انطلاقا من الفهم المعروف " أن الفنان إنما يقلد نماذج يحتذيها في مجتمعه، يعبر فيها عن المستوى الفني العام في هذا المجتمع و عن مستواه الحضاري و نزعاته الأخلاقية و قيمته الفكرية و الذوقية". [4]

---

1)- المحاسن و المساوئ : للبيهقي، ص:175.

2)- مقالة في النقد: لغراهام هوت، ترجمة: محي الدين صبحي، مطبعة جامعة دمشق، 1973م ص:97- 99.

3)- نفسه: ص: 100.

4)-النقد العربي الحديث: أصوله، قضاياه، و مناهجه: د/ محمد زغلول سلام، مكتبة الأنجلو مصرية، د. ت، ص:17.

و بذلك رفضت بعض الموضوعات "رفضا مطلقا كموضوعات الهجاء و النقائض والغزل الإباحي و الخمريات بل ساهموا –العلماء– في إصدار فتاوى بالكفر و الزندقة والعصيان لبعض الشعراء و أثرت بذلك السلطة الدينية على السلطة السياسية التي اضطرت إلى إقامة الحد حفاظا على سلامة المجتمع الإسلامي الأخلاقية و الثقافية."(1)

فالخليفة لم يكن يصدر رأيه النقدي في بعض الأحيان عن معيارية جمالية تنكب على ما سبق أن ذكرناه من أسس جمالية بحتة، خاصة إذا تعلق الأمر بفساد المجتمع و بوار الأخلاق.

فهذا الرشيد يقف من قضية الغزل الماجن، موقف المهدي نفسه، فعن إسحاق قال: غنيت الرشيد يوما بقول عمر ابن أبي ربيعة:

قالت سكينة و الدموع ذوارف * * * منها على الخدين و الجلباب.

فوضع القدح من يده و غضب غضبا شديدا و قال لعنه الله الفاسق و لعنك معه، فسقط في يدي و عرف ما بي فسكن، ثم قال: ويحك أتغنيني بأحاديث الفاسق ابن أبي ربيعة في بنت عمي و بنت رسول الله ألا تتحفظ في غنائك و تدري ما يخرج من رأسك. (2)

و قد حدد الرشيد سبب ثورته، و غضبه على إسحاق رابطا بين ما يقتضيه التحفظ من جهة، و ما يتوجبه مقام الخلافة و المتغزل به من جهة أخرى، و إن بدأ حكمه بتعميم أبان عنه فيما بعد. فعمر "فاسق" لأنه لا يتورع، و يتطاول على بنات الرسول، و إسحاق مثله لأنه لا يتحفظ، ويتطاول على بنات أعمام الملوك و الخلفاء.

و الأمر نفسه يتكرر مع أبي إسحاق، فقد غنى بين يدي الرشيد و شارته منصوبة:

و أرى الغواني لا يواصلن امرأ * * * فقد الشباب و قد يصلن الأمردا

فطرب و استعاده و أمر له بمال فلما أراد أن ينصرف قال له:

يا عاض كذا و كذا، أتغني بهذا الصوت و جواري من وراء ستارة يسمعنه لولا حرمتك لضربت عنقك " فتركته و الله حتى أنسيته. (3)

---

1)- الضوابط الشرعية للشعر العربي: لآمال لواتي، مجلة الآداب و العلوم الإنسانية، ع/03، رمضان 1424هـ/ نوفمبر 2003، ص: 173.

2)-الأغاني: لأبي الفرج الأصفهاني، 17/162-163.

3)-نفسه:09/274.

و الخبر نفسه يتكرر غير أن المغنى هو علوية و قال له الرشيد[1]:" يا عاض بظر أمه تغني في مدح المرد و ذم الشيب و ستارتي منصوبة، و قد شبت كأنك إنما عرضت بي، ثم دعا بمسرور فأمره أن يأخذ بيده فيخرجه و يضربه ثلاثين درة و لا يرده إلىمجلسه... و جفا علوية شهرا و لم يأذن له حتى سألناه فأذن له.

و ربما لذلك نجده يوصي الكسائي فيقول:" رونا من الأشعار أعفها." [2]

فالشعر الحسن عنده و الجدير بالرواية و الحفظ و حتى الغناء، هو العفيف والطاهر الذي يمجد الأخلاق الفاضلة يبحث في النفوس شعورا نقيا يأنف عن اللذائذ و المتع العارضة، و كأني به يستحضر ذلك الدور التربوي الذي دعا إليه عمر بن الخطاب الرواة حين قال:" أرووا من الشعر أعفه." [3]

بل و نجد رأيه في بن ربيعة، صدر لرأي هشام ابن عروة" لا ترووا فتياتكم شعر عمر ابن أبي ربيعة لئلا يتورطن في الزنا تورطا".[4]

مضافا إليه حكما فقهيا يورده العسقلاني إذ يقول:" الغزل بمعين لا يحل." [5]

على أننا و نحن نلتمس هذه المعيارية في نقدات هارون و غيره من الخلفاء نسجل ذلك الاضطراب-مرة أخرى- بين الموقف الخاص، و الموقف العام فطرب هارون و استعادته البيتين(موقف خاص) لم يحكم فيه الأخلاق.لأنه صدر عنه مجردا من لقب الخلاقة، بينما يراعي الموقف العام هذا اللقب ضروراته و موجباته.

يقول طه حسين عن هؤلاء الخلفاء:" كانوا يحيون حياتين مختلفين، حياة للشعب يحتفظون فيها بجلال الدّين و مجده و عظمة الخلافة و قوتها السياسية، فهم من هذه الناحية محافظون، و حياة لأنفسهم و لخلصائهم في القصور، و من وراء الحجب يتركون فيها لأنفسهم حريتها الفطرية فيلهون و يلعبون و ينادمون و يشربون و يقترفون ضربا من الآثام. [6]

---

1)- السابق: 11/ 363.

2)-شرح نهج البلاغة: لابن أبي حديد، عز الدين أبي حامد بن محمد ، دار مكتبة الحياة- بيروت- د.ت، 56/05.

3)-العمدة: لابن رشيق،، 28/01.

4)-ينظر في تاريخ النقد و المذاهب الأدبية: لمحمد طه الحاجري، دار النهضة العربية، 1982، ص: 77.

5)-فتح الباري، شرح صحيح البخاري: للعسقلاني بن حجر، دار المعرفة – بيروت- 343/22.

6)- من تاريخ الأدب العربي: د/ طه حسين، 02/ 119.

فلا عجب إذن أن يتحكم في الموقف النقدي للخليفة معياريتان تتناوبان تبعا لتبـــدل المواقـــف و الأحوال، و هو ما نؤكده مرة أخرى لنؤكد من خلاله على خصوصية الإسهام النقدي للخليفة أو الملك، بصفة عامة و إسهام الخلفاء من العباسيين بصفة خاصة نظرا لما عرف به عصرهم من اتساع الفكر و " حرية الرأي و ازدهار الثقافة و إشعاع الحضارة."[1]

---

1)-الحياة الأدبية في مجالس الخلفاء العباسيين حتى نهاية ق 3هـــ: لمصطفى البشير قط، ص: 115.

ب*- المـــــــدح:

يعد أكثر الأغراض الشعرية دورانا في الأدب العربي و يمكن ملاحظة منحيين علـــى علاقتـــه بالخلفاء، منحى يورث الريادة و الكبر لدى الممدوح ويؤدي إلى الكذب و النفاق و الطمع لـــدى المادح، و المنحى الآخر هو الإشادة بالصفات الخيرة في الممدوح[1] و هي دعوة إلى الإقتـــداء و التأسي...و في ذلك يقول أبو حامد الغزالي:"فإن سلم من هذه الآفات في حق المادح و الممدوح لم به بأس، بل ربما كان مندوبا إليه " [(2)]

فقد يؤدي الإفراط في المدح إلى مالا يحمد عقباه من تماد في الفسق أو الظلم أو الجور.

و لذلك و ضع بعض العلماء ضوابط اعتبروا كل شعر مدحي لم يوافقهـــا لا يســـتحق الروايـــة متأسين بعمر بن الخطاب حين فضل زهيرا "لأنه كان لا يعاظل في الكلام و لا يتبـــع حشـــي الشعر و لا يمدح أحدا فلا بما فيه " [(3)] فأبو حامد يطلب من الشاعر المادح أن يتســـامى عـــن قول الكذب وتزييف الحقائق و أن أباح بعض المعاني و المبالغات المدحية[(4)] على ضوء ما سبق.

وإن كان الزمخشري المعتزلي يحد معاني المدح حين يوجهها إلى صلحاء الأمة و يضمنها ذكر الله وحمده و الثناء عليه أو ذكر الرسول -صلى الله عليه و سلم-و مدحه ومدح آله و صـــحبه[(5)] وهو من هذا الوجه مندوب إليه حسب القرطبي. [(6)]

---

1)-ينظر مجلة الآداب و العلوم الإنسانية:لآمال لواتي، جامعة الأمير عبد القادر بقسنطينة ع/03 رمضان 1423/نوفمبر 2003 ص:169.

2)-إحياء علوم الدين :لأبي حامد الغزالي:تحقيق: سيد إبراهيم، ، دار الحديث القاهرة ،1992 ،03/249-250.

3)-طبقات فحول الشعراء:لابن سلام، ص:01/63.

4)-ينظر إحياء علوم الدين:لأبي حامد الغزالي، 03/200.

5)-ينظر الكشاف: للزمخشري، دار المعرفة -بيروت- 03/133.

6)-الجامع لأحكام القرآن: للقرطبي، دار الكتاب العربي- بيروت- 13/146.

كما اهتم فريق آخر من الفقهاء و العلماء بالغلو في المدح و تعقبوا بعض الشعراء الذين شاع عنهم ذلك فنجد ابن تيمية مثلا كما يورد عنه ذلك ابن كثير يقول:" و قد بلغني عن شيخنا العلامة أحمد بن تيمية –رحمه الله–أنه كان ينكر على المتنبي هذه المبالغة في مخلوق، و يقول:إنما يصلح هذا لجناب الله سبحانه و تعالى". [1]و الحكم ذاته تقريبا يطبع به ابن خلكان ديوان ابن هانئ الأندلسي حين يقول في حقه إن ديوانه كبير لولا ما فيه من الغلو في المدح و الإفراط المؤدي إلى الكفر[2]كما نجد فريقا ثالثا اهتم بالمعاني المدحية وطبيعتها فدعا إلى الابتعاد عن المعاني الجاهلية التي تشبه الإنسان بالحيوان أو الجماد أو غيره من التشبيهات و حثوا بالمقابل على التركيز على الصفات الحقيقية التي يتفاضل فيها الناس كالجود و الكرم و الشجاعة،و الوفاء و العلم و التقوى انطلاقا من قوله تعالى:"إن أكرمكم عند الله اتقاكم".[3]

و للخليفة المنصور في هذا المجال رأي نقدي جدير بالتتبع، فقد أمر الربيع–مرة– أن يخرج إلى الشعراء الذين كثروا ببابه و يقول لهم:"من مدحني منكم فلا يصفني بالأسد فإنما هو كلب من الكلاب و لا بالحية فإنما هي دويبة منتنة تأكل التراب و لا بالجبل فإنما هو حجر أصم و لا بالبحر فإنما غطامط لجب، و من ليس في شعره هذا فليدخل ومن كان في شعره فلينصرف فانصرفوا كلهم إلا إبراهيم ابن هرمة فإنه قال له أنا له يا ربيع فأدخلني فأدخله فلما مثل بين يديه قال المنصور يا ربيع قد علمت أنه لا يجيبك غيره هات يابن هرمة فانشده قصيدته التي يقول فيها:

له لحظات عن حفافي سريره	* * *	إذا كرها فيها عذاب و نائل
لهم طينة بيضاء من آل هاشم	* * *	إذا اسود من كوم التراب القبائل
إذا ما أبى شيئا مضى كالذي أبى	* * *	و إن قال إني فاعل فهو فاعل.

فقال حسبك ها هنا بلغت عين الشعر. [4]

---

1)–البداية و النهاية: لابن كثير، تحقيق: أحمد أبو ملحم و آخرين، دار الكتب العلمية –بيروت– 1989 –275/11.

2)–ينظر وفيات الأعيان: لابن خلكان،تحقيق: إحسان عباس دار صادر– بيروت– 351/03.

3)–القرآن الكريم:الحجرات، الآية:13.

4)–الأغاني: لأبي الفرج ج70/11و العقد الفريد لابن عبد ربه، 320/01–321 مع اختلاف في نسبة و رواية البيت الأول.

و يكتسي هذا الخبر أهمية بالغة، انطلاقا من دقة تصور المنصور لمعاني المدح،و مثالب كل معنى، فهو يستبعد كل تشبيه فيه إزراء بالإنسان كإنسان أولا، ترتفع به صفة البشرية عن غيره من الموجودات الأخرى،ن ثم يحدد ضمنيا دائرة المعاني المستحسنة،و هي التي تناولها فيما بعد قدامة ابن جعفر(ت 337)، و عد لأجلها – بعد حوالي قرنين- داعية المدح المعنوي و مؤسس مذهبه في الأدب العربي. (1)

حين يقول: "أنه لما كانت فضائل الناس من حيث إنهم ناس، لا من طريق ما هم مشتركون فيه مع سائر الحيوان، على ما عليه أهل الألباب من الاتفاق في ذلك، إنما هي: العقل و الشجاعة، و العدل و العفة، كان القاصد لمدح الرجال بهذه الأربع خصال مصيبا،و المادح بغيرها مخطئا و قد يجوز في ذلك أن يقصد الشاعر للمدح منها بالبعض و الإغراق فيه دون البعض، مثل أن يصف الشاعر إنسانا بالجود الذي هو احد أقسام العدل وحده فيغرق فيه و يتفنن في معاينته، أو بالنجدة فقط فيعمل فيها مثل ذلك، أو بهما أو يقتصر عليهما دون غيرهما فلا يسمى مخطئا لإصابته في مدح الإنسان ببعض فضائله."(2)كاختيار هارون الرشيد جماعة من أهله و جلسائه في أي بيت مدح به الخلفاء من بني أمية و بني العباس هو امدحن و أفخر ثم اختياره بيت الأخطل في عبد الملك:

شمس العداوة حتى يستقاد لهم * * * و أعظم الناس أحلاما إذا قدروا. (3)

و ما كان ذلك منه إلا لمسه من تمجيد لصفتين تبدوان متناقضتين" الغضب و طلب الثأر" و" الحلم عند المقدرة" و هما صفتان الملك اشد الناس حاجة إليهما، و نحن نرجح أنه لو كان في موقف غير هذا الموقف لما اختار هذا البيت، لأن قصد تأديب و تنشئة "أهله" على لاتصاف بما يحب لمنصب الخلافة من خلال لا يستقيم له دونها الملك.

---

1)-النقد الأدبي الحديث: للدكتور محمد غنيمي هلال، دار العودة- بيروت- ط 1982/01، ص:177، حاشية رقم 01.

2)-نقد الشعر: لقدامة ابن جعفر، ص: 96.

3)- الأغاني:لأبي الفرج الأصفهاني،ص70/11.وكذلك فعل أبو العباس قبله.

و لذلك كان يحتمل أن يمدح –هارون– بما تمدح به الأنبياء كما ذكر صاحب الأغاني[1].
فخصوصية الخلفية هي التي جعلت هارون الرشيد يتغاضى عن بعض المعاني المدحية التي تضعه في مصاف الأنبياء و الصالحين ما دام هذا المادح يستخدم و يحفظ للدولة هيبتها بين الناس و لعله من ذلك اكتسب هيبة خاصة عند العامة كما درس صاحب المثل السائر[2] غير أنه كان يغضب ما لمس مبالغة تتناوله دون لقبه فقد قال فيه يوما أحد الشعراء:

فكأنه بعد الرسول رسول

فغضب و لم ينتفع به أحد يومئذ[3]و ما ذلك إلا لأنه تعدى على أصل من أصول الدين،و أفرط و بالغ دون حاجة منه إلى ذلك، حتى علي و جاوز الحد و جعله رسولا بعد الرسول –صلى الله عليه و سلم–كما غضب على النمري لما دعا إلى الثورة، واستهزأ بالخلافة و حث العلويين على شق عصا الطاعة حين قال:

شاء من الناس راتع هامل * * * يعللون النفوس بالباطل

حتى قال: ألا مساعير يغضبون لها * * * بسلة البيض و القنا الذابل

و أمر بقتله فوجده قد توفي، و كاد أن يأمر بنبش قبره و حرقه لو لا الفضل. [4]
فالبيت الأول بيت في الإفهام فهما معينا عن الخلافة، و يوحي بفوضى عارمة لأجل ما يتعلق بالناس، من آمال باطلة حول خلفاء لا حول لهم و لا قوة، بينما يدعو البيت الآخر في صراحة إلى الثورة و إحقاق الحق، بإرجاع الملك لأصحابه.
و غضب المأمون على علي ابن جبلة العكوك بسبب مدحه أبا دلن و مبالغته في خلع صفات الكرم عليه بقصيدته التي يقول فيها:

كل من في الأرض من عرب * * * بين بادية إلى محتضره

مستعير منك مكرمة * * * يكتسبها يوم مفتخره

فقد أمر بإحضاره و قال له: يا ابن اللخناء أنت القائل للقاسم ابن عيسى أبي دلف(البيتين السابقين)

---

1)–الأغاني: لأبي الفرج الأصفهاني، 161/13.
2)–المثل السائر: لابن الأثير، 231/02.
3)–الأغاني: لأبي الفرج الأصفهاني، 161/13.
4)–نفسه: 166/13–167.

جعلتنا ممن نستعير المكارم منه؟ ثم أمر بسل لسانه من قفاه، و في رواية أخرى قال له:"إني لست استحل دمك لتفضيلك أبا دلف على العرب كلها و إدخالك في ذلك قريشا،و هم أرسول الله صلى الله عليه و سلم و عترته و لكن أستحله بقولك في شعرك،و كفرك، حيث تقول القول الذي أشركت فيه:

أنت الذي تنزل الأيام منزلها * * * و تنقل الدهر من حال إلى حال

و ما مددت مدى طرف إلى أحد ** * إلا قضيت بأرزاق و آجال.

كذبت ما يقدر على ذلك أحد إلا الله عز و جل الملك الواحد القهار. (1)

و تبدو غيرة المأمون واضحة من الذي خلعه الشاعر على أبي دلف من صفات مادحة،و تجاهله لكل من سواه من الخلفاء و الأشراف حتى وصل به الحد تماما كما يبدو حرصه على تحـري الالتزام بقيمة الصدق و التسامي عن قول الكذب و تزييف الحقائق كضابط قلنا من قبل إنه من وضع الفقهاء. (2)

---

1)-المرجع السابق: 20/49-50 و ينظر نفسه 263/08.

2)-إحياء علوم الدين: لأبي حامد الغزالي، 03/ 200.

ح*- الهجـــاء:

وهو ضد المديح، يقول عنه قدامة:"كلما كثرت أضداد المديح كان أهجى له"[1] و لذلك شـاع في الهجاء التمادي و الإفراط في القذف و السب و خلع معان متناقضة لمعاني المـديح، لكـن العلماء المسلمين أجازوا ذلك ما رمى إلى الانتصار، و قصد رد العـدوان و دفـع الضـيم، و استدلوا على ذلك بموقف الرسول-صلى الله عليه وسلم- من هجاء المشركين و حثه الشـعراء المسلمين على الدفاع عنه و عن دعوته فقال مرة:"ما يمنع الـذين نصـروا الله بسـلاحهم أن ينصروه بألسنتهم."[2]

و قال أخرى لحسان بن ثابت:"أهجهم فالله لهجاؤك عليهم أشد من وقع السهام في غلس الظلام، و اهجهم و معك جبريل روح القدس."[3]

و قد استثنى الله عز و جل من زمرة الشعراء المذمومين الذين انتصروا من بعد ما ظلموا مـن المسلمين كحسان و عبد الله."[4]

غير أن ذلك لا يعني بلوغ الإقناع، و التعرض لأعـراض و الصـفات الجسـمية المرتبطـة بالمعايب[5]، ففي ذم الصفات النفسية كالشره و الجبن و الكفر، و الفسق و المجون و النفـاق و ما إليها مندوحة:" و قد كان ذلك وليد فكرة محددة عن العالم و الحيـاة عـن الإنسـان و الله و تستند هذه الفكرة إلى أن الله هو كنه الوجود و لذا فإن المسلم ينظر إلى أعماق الآدمي أكثر من النظر إلى مظهره الخارجي و طبيعته المادية."[6]

و قد كان المأمون -فيما يبدو- أكثر الخلفاء استنكارا و استقباحا للإقذاع و الفحش و الهجر من القول في الهجاء.

---

1)-نقد الشعر: لقدامة ابن جعفر، ص:92.

2)-فتح الباري: شرح صحيح البخاري: للعسقلاني، 06/ 544.

3)-نفسه:06/ 544.

4)- سورة الشعراء: الآية 227.

5)- سورة الحجرات: الآية 11.

6)-العلاقة بين الجمال و الأخلاق في مجال الفن:دار رمضان الصباغ/ عالم الفكر، م/27، ع01، يوليو/سبتمبر 1998، ص:105.

فقد "دخل أبو عينية يوما – عليه– فقال له: يا أبا عينية هجوت ابن عمك بألف بيت ما عرضت له بمحرم و لا تجاوزته إلا في بيت واحد، وددت أنك ما قلته، قال: و ما هو يا أمير المؤمنين؟، قال: قولك:

و لأوذينك فوق ما آذيتني * * * و لأوسدن على نعاجك ذيبي.

فقال: يا أمير المؤمنين، فإني أردت بالنعاج بنيه لا غيرهم، فسري عن المأمون"[1]

فحدود الهجاء عند المأمون هي الأخلاق، و قد رد البيت بناء على فهم لا أخلاقي لإحدى ألفاظه، لذلك سرى عنه لما أزال الشاعر توهمه، و أوضح قصده، كما يدل الخبر الآتي على مدى إيمان المأمون بالمبدأ السابق الذكر، و تقديمه الباطن على الظاهر، و تغليبه الأخلاق على الخلائق.

فقد دخل محمد بن عباد على المأمون فجعل يعممه بيده و جارية على رأسه تتبسم فقال المأمون مم تتضاحكين؟

فقال ابن عباد أنا أخبرك يا أمير المؤمنين، تتعجب من قبحي و إكرامك إياي، فقال: لا يعجبني فإن تحت هذه العمامة كرما و مجدا.

قال الشاعر:

و هل ينفع الفتيان حسن وجوههم * * * إذا كانت الأعراض غير حسان.

فلا تجعل الحسن الدليل على الفتى * * * فما كل مصقول الحديد يماني. [2]

فالمأمون يحدد دون لبس موقفه من علاقة الجمال بالأخلاق، حين يشير إلى ما تحت العمامة من كرم و مجد.

ثم يستشهد بما يؤيد مذهبه من كلام العرب و ما أشبه تحديده هذا بما أورده صاحب "لسان العرب" من تحديد في معاني مادة(خ، ل، ق) إذ يقول:

---

1)-طبقات الشعراء: لابن المعتز، تحقيق: عبد الستار أحمد فراج، دار المعارف-مصر-ط2، 1986 ص:288-289.

2)-المستطرف في كل فن مستظرف: للأبشيهي، 259/01.

" و حقيقته أن لصورة الإنسان الباطنية، و هي نفسه و أوصافها و معانيها و لها أوصاف حسنة و قبيحة، و الثواب و العقاب يتعقبان بأوصاف الصورة الباطنة أكثر مما يتعلقان بأوصاف الصورة الظاهرة."(1)

و لا شك أن استحضار مثل هذه المفاهيم عند كل من الخليفة و الشاعر يجعل فاعلية القصيدة الهجائية، بالغة التأثير، خاصة إذا كانت متأثرة عكسيا بتحديدات أبي جعفر المنصور، و قدامة ابن جعفر لمعاني المدح المثالية، و هو ما نلمسه بوضوح في ردود أفعال بعض الخلفاء تجاه بعض من تعرضوا لهم بالهجاء، فقد كتب المنصور إلى عبد الصمد بن علي بأن يدفن سديفا حيا ففعل على أثر أبيات قالها طاعنا في دولة بني العباس(2) منها:

إذا لنأمل أن تريد ألفتنا * * * بعد التباعد و الشحناء و الإحن

و تنقضي دولة أحكام قادتنا * * * فينا كأحكام قوم عابدي وشن

فانهض ببيعتكم ننهض بطاعتنا * * * إن الخلافة فيكم يا بني حسن

كما اشتهر المهدي بقتل بشار ابن برد الأعمى حين هجاه" و ذكر شغله بالشراب و اللهو، فأمر به فقتل تغريقا في الماء."3

و غضب الرشيد على النمري حتى هم ينبش قبره و حرقه ميتا لما تناهى إليه مدحه العلويين و إزراؤه بالعباسيين و دولتهم (4)

و كذلك فعل المأمون مع ابن جبلة لما مدح أبا دلف، و سلب العرب جميعا ما خلعه على أبي دلف(5) و كأنه يعرض بهم.

---

1)-لسان العرب: لابن منظور، دار صادر و دار بيروت،-بيروت- 1968، مادة(خ، ل، ق).

2)-العمدة: لابن رشيق،01/ 74-75.

3)-ينظر الشعر و الشعراء: لأبي قتيبة، ص:516، و ينظر كذلك رواية أخرى للأغاني238/03.

4)-الأغاني: لأبي الفرج الأصفهاني، 03 /166.

5)-نفسه:167/20-168.

و تذكر بعض الروايات أن المعتصم قتل دعبلا لهجائه له، و لم ينفعه استجارته بقبر الرشيد بطوس [1]و لكن هل يمكن اعتبار الغضب، و البطش و غيرهما من الانفعالات ممارسة نقدية تستحق التحليل عند هذه الفئة؟

يقول حسام الدين الخطيب مجيبا:"إن أحد وجوه العلاقة بين القصيدة و الشاعر و القارئ كما تعرف في نظرية المعادل الموضوعي هو أن القصيدة لها حياتها الخاصة...و لأن المشكلة مشكلة الانفعال الذي يريد الشاعر أن يعبر عنه تقدم القصيدة موقفا فريدا أو سياقا." مما يجعل الانفعال الذي نحصل عليه من القصيدة مرتبط به." أي أن الموضوع يصبح قادرا على إثارة انفعال شعري بعد أن يكون قد استعمل فقط ممن قبل الشاعر كبديل للإنفعال الذي يريد أن يعبر عنه". [2]

لذلك كان ممن الصعب على كثير من الشعراء تحديد الانفعال الذي يعتري القاري، أيا كان؛ سواء في علاقته مع المجتمع ، أو مع النخبة لا سيما إذا امتلكت هذه النخبة آلية نقدية حادة تقطع بها رؤوس المتعرضين نقول هذا و نحن نستحضر موقف هارون الرشيد من قصيدة النمري التي مدحه فيها كعادته، و هجا و انتقص من علي و آل البيت، وكيف استمال الرضى المنشود(من قبل الشاعر)سخطا و نقمة مستبعدة[3]

لأن العلاقة الجامعة بين الشاعر و الخليفة علاقة خاصة خصوصية أخلاق الملوك التي عبر عنها قديما فأصاب من قال:

و يوم كأخلاق الملوك ملون * * * فشمس و دجن ثم ظل و وابل

أشبهه إياك يا من صفاته * * * دنو و إعراض و منع و نائل[4]

كما أنهم كانوا يكرمونهم كانوا كذلك يسومونهم سوء العذاب أحياء و أموات إذا سخطوا وهو ما يدفعنا إلى التنويه مرة أخرى بخصوصية العملية النقدية لدى هذه الفئة، و التي تستحق أكثر من الوقوف عند أقوالهم، بل تجاوزوها إلى الكثير ممن حركاتهم، و سكناتهم و هدآتهم، واضطراباتهم يقصر المقام دونه.

---

1)-شذرات من كتب مفقودة في التاريخ: جمع و تحقيق د/ إحسان عباس، ص: 94.

2)-محاضرات في تطور الأدب الأوربي و نشأة مذاهبه و اتجاهاته النقدية، ص:482.

3)-ينظر الأغاني:لأبي الفرج،161/13.

4)- ثمار القلوب في المضاف و المنسوب: لأبي منصور عبد الملك ابن إسماعيل، الثعالبي، تحقيق: إبراهيم أبو الفضل، دار المعارف- القاهرة- ط01 ، 1965، ص:184.

د*- الرثاء والمدح والحكمة:

يلتقي هذا الغرض مع المدح، بل و يتحد معه حتى لا يكاد يفرق بينهما، فليس" بين المرثية و المدحة فصل إلا أن يذكر في اللفظ ما يدل على أنه لهالك مثل: كان، تولى، و قضى نحبه و ما أشبه ذلك."(1)

و لذلك نجد-تقريبا- هذا الغرض بغرض آخر وثيق الصلة به، و هو شعر الحكمة و الزهد و هو لون من الشعر " تعليمي تخويفي، يدعو الناس فيه إلى التفكير في الموت ويذكرهم بلقاء الله و يحقر الدنيا و يدعو إلى عدم الاطمئنان، إليها سعيا منه إلى تطهير النفوس من الشرور و الخبائث و تقوية الصلة بين العابد و المعبود."(2)

فهو شعر يستخدم الوعظ و الإرشاد، لصقل الأخلاق، و جعلها تتماشى في اتساق مع الكون.لذلك فهو يدعو الإنسان إلى حقيقة أن الحياة الدنيا ليس من شأنها أن تدوم على وتيرة واحدة و لا تستقيم للإنسان على حال ثابتة... فبينما يفرح المرء بولده-مثلا-و يعلق عليه الآمال و الأحلام إذا بالموت يخطفه من بين يديه فيذهب الأب يعالج حزنه و يرثي ابنه، و يخرج آلامه و أشجانه."(3)

و يعتري هذين النوعين من الشعر، سحر و وحي يجعل من الشاعر صاحب رسالة يسعى بكل ما أوتي إلى نشر تعاليمها، ففيه" تسمو نفس الشاعر و تحلق روحه في جو إيماني ندي، فيتوجه بشعره إلى النفوس ليوقظها من غفلتها و يقصد القلوب فيقرع برفق أبوابها ليحرك ساكنها ثم يسدي نصحه -في إخلاص- إلى صاحبها."(4)

---

1)-نقد الشعر: لقدامة ابن جعفر، ص:100.

2)-ابن حزم الفقيه أديبا: أ/زينب بوصبيعة، مجلة الآداب و العلوم الإنسانية، ع/03/ رمضان 1424/نوفمبر 2003(خاص بأعمال ملتقى اللغة و الأدب و علاقتهما بالعلوم الشرعية، ص: 190.

3)-الالتزام الإسلامي في الشعر: ناصر ابن عبد الرحمان الخنين،دار الأصالة للثقافة و النشر و الإعلام- الرياض- ط01 ، 1408هـ، 1987م، ص: 264.

4)- نفسه: ص:241.

و قد اشتهر المعتضد من بين خلفاء بني العباس بقصيدته التي قالها و قد حضرته الوفاة و منها:

و لا تأمنن الدهر إني أمنـــته * * * فلم يبق لي حالا و لم يـــرع لي حقا

قتلت صناديد الرجال فلـــم أدع * * * عدوا و لم أترك على ظهرها خـــلقا

و أفنيت دار الملك من كل بارع * * * فنستهم غربا و شردتهـــم شـــــــرقا

فلما بلغت النجم عزا و رفـــــقة * * * و صارت رقاب الخلق أجمع لي رقا

رماني الردى سهما فاخمد جمري * * * فها أنذا في حـــفرتي مـــيتا ألقى[1]

تماما كما اشتهر الرشيد مع صاحبه أبى العتاهية بلفتاته النقدية التي جعلت هـــذا الأخيـــر يبـــذل قصارى جهده في تتبع معاني الزهد.[2]

و أبدع صور الحكمة القائمة على ذم الدنيا و أهلها... خاصة إذا كان مطبوعا موسوما بسلاسة النظم، يقول صاحب الأغاني: سمعت الأمير علي ابن عيسى ابن جعفر يقول: كنت صبيا فـــي دار الرشيد فرأيت شيخا ينشد و الناس حوله:

ليس للإنسان إلا ما رزق * * * أستعين الله بالله أثق (القصيدة)

فقلت لبعض الهاشميين أما ترى إعجاب الناس بشعر هذا الرجل فقـــال: يـــا بنـــي: إن الأعناق لتقطع دون هذا الطبع."[3]

و لا عجب بعد ذلك أن يؤثر الرشيد هذا الشيخ على من سواه، و يسأله أن يعظه، و يؤمنه على ذلك فقد قال له ذات يوم:

لا تأمن الموت في طرف و لا نفس * * * إذا استرت بالأبواب و الحرس

و اعلم بان سهام الموت قاصـــــدة * * * لكل مدرع مـــــنا و مـــــترس

ترجو النجاة و لم تسلك مسالكهـــــا * * * إن السفينة لا تجري على اليبس

فبكى الرشيد حتى بل كمه. [4]

---

1)-تاريخ الخلفاء: السيوطي، ص: 424-425.

2)-ينظر مثلا طبقات الشعراء:لابن المعتز، تحقيق: عبد الستار أحمد فراج، ص:229.

3)-الأغاني: لأبي الفرج الأصفهاني: 72/04، ثم كان الشيخ أبا العتاهية و المسؤول إبراهيم ابن الأدهم.

4)-نفسه: 04 /112.

و يبدو أن هذا اللون من الشعر كان يستهوي الخلفاء العباسيين عامة، و الرشيد خاصة حتى كان يقدم شعراءه كأبي العتاهية، و" يجوز الحد في تقديمه" 1

و يناصره على خصومة ما التزم الضوابط الأخلاقية في هجائية، كما حدث مع أبي العتاهية عندما خاطب سلما الخاسر:

تعالى الله يا سلم ابن عمرو * * * أذل الحرص أعناق الرجال

هب الدنيا تصير إليك عفوا * * * أليس مصير ذاك إلى زوال.

فقال الرشيد و قد بلغه هذا الشعر فاستحسنه وقال: لعمري إن الحرص لمفسده لأمر الدين و الدنيا، و ما فتشت عن حريص قط معيبة إلا انكشف لي عما أذمه."(2)

فالرشيد -كما ترى-يتفاعل مع بيتي أبي العتاهية، و يبدي موافقته لمثل هذه الملاحظات الواقعية، و يؤكدها إيمانا منه بذلك الدور.التربوي الأخلاقي الذي يلعبه الشعر "عامة" كما قد يعد -عنده- من قبيل الوفاء للماضيين من الرجال المشهود لهم بالأخلاق الفاضلة فقد استنشد -الرشيد- يوما محمد الرواية مرثية مروان ابن أبي حفصة في معن ابن زائدة، ثم قال له أنشدني قصيدة أبي موسى التيمي في مرثية يزيد بن مزيد فهي و الله إلي من هذه فأنشده-القصيدة-...

قال: فبكى هارون الرشيد بكاء اتسع فيه حتى لو كانت بين يديه سركجة لملأها ممن دموعه(3)

كما قد تربطه بالقصيدة ذكريات شخصية تجعلها محببة إلى نفس الخليفة أثيرة عنده عما سواها. فقد روى عن المعتصم إعجابه بشعر لبيد، حتى أنه استنشد جلساءه مرة قصيدته التي يقول فيها: بلينا و لا تبلى النجوم الطوالع (القصيدة)

---

1)-ينظر السابق: 08/386-387.

2)-نفسه: 19/283.

3)-نفسه:20/56-57.

فقال أحد الجلساء فأنشد البيتين الأولين، فبكى المعتصم حتى جرت دموعه، و ترحم على المأمون، و قال: هكذا كان رحمة الله عليه ينشدها لي، ثم اندفع ينشد باقيها، قال لبعض الجلساء: و الله لعجبنا من حسن ألفاظه، و صحة إنشاده و فصاحته و جودة اختياره. (1)

و المعتصم في هذا الخبر يبدو موافقا لما أقره العلماء من رواية الشعر الرثائي الحاث على التبصير و التجلد، و لقوله صلى الله عليه و سلم :"لا تسبوا الدهر، فإن الله هو الدهر." (2)

كما نجد صورة أكثر إثارة حول هذا المعنى عند المنصور إذ يروى أنه طلب من أهل بيته من يروي قصيدة أبي ذؤيب الهذلي في رثاء أبنائه و غضب لما لم يجد رواية لها من بينهم.معتبرا ذلك زهدا في رواية الشعر، و قلة اهتمام منهم بالأدب3

و كثيرا ما كان يتكرر مثل هذا الفعل (الاستشهاد) لقصائد معينة أثيرة في مجالس الخلفاء العباسيين، و يهمنا هنا أن نذكر ما تعلق بموضوعنا، " فقد طلب المنصور حمادا الراوية فلما مثل بين يديه قال له:أنشدني شعر هفان ابن همام ابن نضلة يرثي أباه فأنشده:

خليلي عوجا إنها حاجة لنا * * * على قبر همام سقته الرواعد

على قبر من يرجى نداه و يبتغى *** جداه إذا لم يحمد الأرض رائد (4)

و قد تجاوز الأمر مجرد التأثر الآتي، بكاء أو سخطا، إلى التدبر و تفكر مفض إلى السهر و الأرق.فهذا المهدي يخبر المفضل الضبي أن أبيات الحسين ابن مطير الأسدي قد أسهرته و هي قوله:

و قد تغدر الدنيا فيضحي فقيرها * * * غنيا و يغنى بعد بؤس فقيرها

فلا تقرب الأمر الحرام فإنه * * * حلاوته تغني و يبقى مريرها

و كم قد رأينا من تغير عيشة * * و أخرى صفا بعد اكدرار غديرها.

فيقول له المفضل:" مثل هذا فليسهرك يا أمير المؤمنين". (5)

---

1)-السابق:15/300-362-363.

2)-فتح الباري: 08/574.

3)- ينظر الأغاني،لأبي الفرج،06/287-288.

4)-نفسه:06/90-91.

5)-العقد الفريد: لابن عبد ربه، 02/182-183؛كذا في المطبوع و يبدو البيت الأول مهلهلا.والأغاني لأبي الفرج،16/26-27.و فيه كأن المهدي رقيقا فاستعبر.

بل و قد يبلغ الشاعر الرثائي الزهد مرتبة الطبيب الحكيم، الذي يصف الدواء بعد أن يشخص الداء، و من ذلك ما روى عن المهدي و قد توفيت له بنت، فحزن عليها حزنا شديدا حتى امتنع عن الطعام و الشراب، و ما هو إلا أن يدخل عليه أبو العتاهية و ينشده أبياتا في التعزية حتى يذهب ما به من حزن ويسلو [1]كما كان الرشيد كثيرا ما يطلب من صديقه أبي العتاهية أن ينشده من زهدياته و يعظه بها لما تبلغ من نفسه من تأثير، فتكون بمنزلة طهور لها يطهرها من دون الدنيا عفن الخلافة، و أوضار الملك و يبكي الرشيد أحر بكاء و أشده. [2]

و يبدو هذا الفهم قريبا جدا من فهم كل من أفلاطون و أرسطو لتأثير الأدب على شخصيات ممارسيه و انفعالاتهم انطلاقا من طبيعته القائمة على (المحاكاة) " و اتضح اتجاه أرسطو الأخلاقي من خلال دراسته لتأثير المأساة(التراجيديا) في نفوس النظارة، وانتهى إلى نظرية التطهير cathasis.

مما أدى بأفلاطون إلى استبعاد الشعراء اللاأخلاقيين و فسح المجال للشعراء الحكماء و إن كان النقاد العرب قد مالوا إلى فصل الدين عن الشعر، و إلى إعفاء الشعر- خاصة- ممن الالتزامات الأخلاقية ما عدا طائفة منهم كالباقلاني، و ابن شرف و ابن بسام[3]

إن علاقة الرشيد بهذا اللون من الشعر التطهيري التراجيدي تدفع بنا إلى تمثل علاقته بالخلافة، و نظرته إلى أعبائها، و إلى البحث عن صورة له و هو في خضم حياته اليومية لنحدد ماهية هذه الرابطة أهي قدر مقدور؟ أم حكم مرغوب؟

---

1)-الأغاني: لأبي الفرج الأصفهاني، 76/4.

2)-البداية و النهاية: لابن كثير، 218/10، و الأغاني لأبي فرج الأصفهاني، 108/04.

3)-محاضرات في تطور الأدب الأوروبي: د/ حسام الدين الخطيب، ص: 352-353.

دخل عليه ؟أبو العتاهية يوما و قد زخرف منازله، و أكثر الطعام و الشراب و اللذات، فطلب – الرشيد–منه أن يصف ما هو فيه من العيش و النعيم، فقال أبو العتاهية:

عش ما بدا لك سالـــــما * * * في ظل شاهقة القصـــور
تسعى عليك بما اشتهيت * * * لدى الرواح إلى البـــكور
فإذا النفوس تقـــــعقعت * * * عن ضيق حشرجة الـــصدور
فهناك تعـــــلم موقنـــا * * * ما كـــنـــت إلا في غـــرور

فبكى الرشيد بكاء كثيرا شديدا. "(1)

يبدو الرشيد من خلال هذه الصورة، لاهيا منغمسا في اللذات و النعم غيـــر مقـــدر لعواقـــب الأمور مستشعر لهول ما ينتظره هناك حيث سيوقن انه لم يكن إلا في غرور.

و لعله لذلك تأثر و بكى بكاء كثيرا شديدا، خاصة عندما لا يتنـــازل الشـــاعر عـــن ســـلطانه الأخلاقي، و يستجيب بحرارة إلى دعوة هؤلاء الخلفاء التطهيرية و قد ناءت نفوسهم بأحمالها و أوزارها و ناءوا هم أنفسهم بها.

و يؤيد هذا المذهب ما رواه ابن كثير عن المتوكل، أنه سمع أن بمنزل أبي الحسن علـــي ابـــن الهادي" سلاحا و كتبا من الناس، فبعث جيشه فوجدوه جالسا مستقبلا القبلة، و عليه مدرعة من صوف و هو على التراب ليس دونه حائل، فأخذوه كذلك فحملوه إلى المتوكـــل و هـــو علـــى شرابه، فلما مثل بين يديه أجله و أعظمه و أجلسه إلى جانبه و ناوله الكأس الذي في يده فقـــال: يا أمير المؤمنين لم يدخل باطني و لم يخالط لحمي و دمي قط فاعفني منه فأعفاه ثم قـــال لـــه أنشدني شعرا فأنشده:

باتوا على قلل الأجبال تحرسهم * * * غـــلب الـــرجال فما أغـــنتهم القلل
و استنزلوا بعد عز من معاقلهم * * * فادعـــوا حفرا يا بئـــس ما نزلوا
نادى بهم صارخا من بعد ما قبروا * * * أين الأســـرة و الـــتيجان و الحلل
أيـــن الـــوجوه الـــتي كانت منعمة * * * من دونها تضرب الأستار و الكلل
فأفـــصح الـــقبر عنهم حين ساءلهم * * * تلك الوجـــوه عليها الدود يقـــتتل
قد طال ما أكـــلوا دهرا و ما لبسوا * * * فأصبحوا بعد طول الكل قد أكلوا.

---

(1) ينظر البداية و النهاية: لابن كثير، 218/10.

قال فبكى المتوكل حتى بل الثرى، و بكى من حوله بحضرته و أمر برفع الشراب، وأمر له بأربعة آلاف دينار و تحلل منه، و رده إلى منزله مكرما." (1)

و ما أجدر قول سيد قطب بالتمثل في هذا المقام حين عرض لذكر مثل الشعراء والمتمثلين يشعرهم فهم" أسرى الانفعالات و العواطف المتقابلة تتحكم فيهم مشاعرهم وتقودهم إلى التعبير عنها كيفما كانت و هم أصحاب أمزجة لا تثبت على حال قد يخلقون عوالم من الوهم و ربما تأثروا بها فقل اهتمامهم بالواقع بسبب اهتمامهم بالخيال الذي يعيشون عليه."(2)

لذلك لم نترك مسألة التوفيق بين الشعر من جهة و الجمال من جهة أخرى للاجتهادات الذاتية بل "نظمت العلاقة بضوابط الدين الإسلامي الإيمانية و خضعت للفهم الجمالي القائم على جمال الظاهر و جمال الباطن."(3)

و هو ما نجده عند ابن تيمية و تلميذه بن القيم و غيرهما موسوما بالذوق الإيماني. (4)فلا بد عندهم من توازي الشعور الفني مع الشعور الديني دون أن تطفي الأهواء و الظنون على المقاصد الدينية متكئين على النص القرآني الذي فرق بين نوعين من الشعر نوع لا يعرف إلا الهدم و هو مع ذلك فن و نوع غايته البناء و هو أيضا يحتكم إلى جماليات القول الشعري العربي. (5)محتذين في ذلك القرآن الكريم الذي راعى الحس الجمالي في عرض مضامينه يتناغم عباراته و جمال إيقاعاته و حسن صورة و تناسق معانيه و كان ذلك سر إعجازه. (6)

هذا ما اقتصرنا عليه من عرض لتلك الموضوعات في ظل المعيارية الأخلاقية ضمن

---

1)- البداية و النهاية: لابن كثير 15/11.

2)-في ظلال القرآن: لسيد قطب ،دار الشرق، ،-مصر -ط 1985، 2621/17.

3)-الضوابط الشرعية للشعر العربي: لآمال لواني/ مجلة الآداب و العلوم الإنسانية، ع03. رمضان 1424هـ/نوفمبر 2003، ص:174.

4)-الظاهرة الجمالية في الإسلام: لصالح أحمد الشامي-بيروت- دمشق، المكتب الإسلامي، ط01، 1988، ص:116-124.

5)-دراسات في الأدب الإسلامي: لسامي مكي العاني المكتب الإسلامي، - بغداد- 1975.، ص: 25-31.

6)-التصوير الفني في القرآن الكريم: لسيد قطب، ص:05-10.

إطارها التراثي من مدح و هجاء و رثاء و غزل و زهد و حكمة و هي الأغراض العمدة في الشعر العربي و المطروقة بكثرة في الدرس القديم خاصة منه النقدي و البلاغي والشرعي، و قد اكتفينا ببعض النماذج التي بدا لنا صدق تمثيلها للإسهام النقدي في معياريةهالأخلاقية عند هذه الفئة، فئة الخلفاء العباسيين.

الفصل الثالث:

الأحكام النقدية لخلفاء بني العباس وارتباطها بالمعايير النقدية العامة

1*/الإبداع (الخلفاء العباسيون وقرض الشعر)

2*/الخلفاء العباسيون و رواية الشعر

3*/امتحان الخلفاء العباسيين الشعراء و اقتراحهم المواضيع الشعرية

4*/المساجالات الشعرية والمشاركة فيها

5*/مجال السياسة و مجالس الحكم

I/الإبداع(الخلفاء العباسيون وقرض الشعر):

سبق و أن أشرنا في فصل سابق، إلى أنه كان للخلفاء العباسيين شعر و إن كان كما قال ابن قتيبة من الأشعار التي تحفظ لنبل قائلها.[1] و قد حاولنا إظهار مدى تحريهم لما آمنوا به من معايير جمالية أو أخلاقية.

و نحن في هذا المبحث إذ نعاود النظر في ما أبدعه هؤلاء الخلفاء، إنما نسعى إلى إبراز مدى تأثرهم بهذا الفن من القول خاصة، و اهتماماتهم به و بأهله، من توجيه و صقل.

يعد السفّاح أول هؤلاء الخلفاء الذين روي لهم شعر على قلته و هو شعر مليء بالحزم، والقوة و الجد، تماشيا مع ما كان يرومه من إرساء للدولة الفتية، و أخذ بثأره من الأمويين، و من ذلك قوله:

تناولت ثأري من أمية عنوة * * * و حزت بثأري اليوم من سلفي قسرا

و ألقيت ذلا من مفارق هاشم * * * و ألبستها عزا و أعليتها قدرا [1]

و هي معاني تكاد تنصبغ بأنها أشعار من كان يختص به من الشعراء، خاصة و نحن نتذكر موقف السيد الحميري بين يديه- السفاح- [3] و موقف سديف مولى أبي العباس مع سليمان بن هشام بن عبد الملك [4] مرة ، و مع رجالات من بني أمية مرة أخرى. [5]

و قد ساير الشعر- حسب هذا المفهوم- أخلاق الخلفاء فكان على الشاعر أن يجاري الخليفة، و يأتي من القول ما لا يخرج عن مذهب هذا الخليفة، حتى عرف في هذا العصر، مصطلح مذهب الخليفة في الشعر كما نجد عند مروان بن أبي حفصة،

أو منصور النمري، مع الرشيد[6].

---

1)-ينظر الشعر و الشعراء: لابن قتيبة، ص: 38- 39.

2-فوات الوفيات: لابن شاكر الكتبي،215/02-216.

3-الأغاني: لأبي الفرج الأصفهاني،259/07.

4- الكامل في اللغة و الأدب: للمبرد،306/02-307.

5-طبقات الشعراء: لابن المعتز،ص:40،و المحاسن و المساوىء : للبيهقي،ص:382.

6-ينظر الأغاني : لأبي الفرج الأصفهاني،158/13.

و كذلك واصل المنصور، فكان شعره مثل شعر أخيه في القلة، و الجد و البعد عن سفاسف الأفكار[1]، خاصة في ظل صراعه مع أبي مسلم الخراساني، و بذلك طالب من اتصل به من الشعراء، فحملهم على الإتيان بالمعنى الصائب المبدع، و اللفظ القوي المحكم، حتى كان يخرج الربيع – حاجبه– إلى الشعراء، فيقول لهم " من مدحني منكم فلا يصفني بالأسد فإنما هو كلب من الكلاب، و لا بالحية فإنما هي دويبة منتنة تأكل التراب، و لا بالجبل فإنما هو حجر أصم... فأحجم الشعراء غير ابن هرمة الذي يقول فيه:

له لحظات عن حفافي سريره * * * إذا كرها فيها عذاب و نائل

فيقول المنصور، حسبك ها هنا بلغت هذا عين الشعر[2].لكن و بمجيء المهدي نجد أن أشعار الخلفاء تميل إلى جانب اللهو و وصف الجواري والغلمان، مما سيدفع بالشعراء بعد استقرار الدولة العباسية إلى مجاراة هذا النمط الجديد من الحياة.لقد كان المهدي أول من فتح الباب لهذا اللون من الشعر... خاصة بما كان ينظمه من شعر غير متورع في جواريه[3]،حتى قال السيوطي عن شعره :"إنه أرق و ألطف من شعر أبيه و أولاده بكثير ." [4]و هكذا واصل الخلفاء العباسيون إبداعاتهم، بحسب ما تمليه عليهم ظروف السياسة والحياة، يشتدون حينا، و يذعنون لرغباتهم و نزواتهم حينا آخر، يتورعون طورا، ويخلعون رداء الحياء طورا آخر.

و قد نجد خير مثال لذلك حياة الأمين، كما يصورها شعره بدءا بخلافته و خلافةٍ مع أخيه، و انتهاء إلى انغماسه في اللهو و المجون، و التغزل بالغلمان.

---

1)-تاريخ الخلفاء: للسيوطي، ص: 308.

2)-العقد الفريد: لابن عبد ربه،1/ 320، 321، و ينظر الأغاني: لأبي الفرج الأصفهاني،70/11 على خلاف في النسبة والرواية.

3)- ينظر الوافي بالوفيات: للصفدي، أبي الصفاء صلاح الدين خليل ابن أيبك ،ط02، غير النقحة باعتناء:س، ديد رينغ، دار النشر فرانز شتاينر بقيسابادن،ط 02 ،1981،03/ 318.

4)- تاريخ الخلفاء: للسيوطي، ص: 318.

فمن شعره في أخيه المأمون قوله:

لا تـــفخرن علـــيك بعد بقيـــة * * * و الفخر يكمـــل للفتى المتكامل

و إذا تطاولت الرجال بفضلها * * * فاربع فإنك لـــست بالمتـــطاول

أعطاك ربك ما هويت و إنما * * * تلقي خلاف هـــواك عند مراجل

تعـــلو المـــنابر كل يوم أملا * * * ما لست من بعدي إليه بواصـــل

فتعيب من يعلو عليك بفضله * * * و تعيـــد في حـــقي مقال الباطل. (1)

أما حين استقرت له الخلافة فترة من الدهر، فقد أغرق من حوله و نفسه في حياة لاهية ماجنة محورها الغلمان و الجواري... و مما روي في هذه الفترة قوله: (2)

ما يريد الناس من صـــــــــب بمن يهوى كئيب

كوثر ديني و دنياي* * * و سقـــمي و طبيبي

أعجز الناس الذي * * *يلحي محبا في حبيب

و لا عجب حينئذ إذا وجدنا أقرب الناس إليه أبا نواس، بل و أحد ملازميه الذين انكب جهـــدهم على الإتيان بكل فريد، في هذا المجال...

لينهي مشهد حياته بنغمة يائسة حزينة، بعد أن ضاق به الأمر و أيقن قرب نهايته، و من ذلـــك قوله: (3)

يا نفس قد حـــق الحـــذر * * * أين المفر من الـــقدر

كل امريء مما يـــخاف * * * و يرتجيه على خطر

من يرتشف صفو الزمان * * * يغـــص يوما بالكدر

---

1)- تاريخ الخلفاء: للسيوطي، ص: 346.

2)-معجم الشعراء: للمرزباني، ص: 362.

3)-تاريخ الخلفاء: للسيوطي، ص: 346- 347.

لقد كان شعر هؤلاء الخلفاء إذا صورة" من حياتهم و مطامحهم، و هو يحمل بين طياته علامات بينة لانهيار الدولة العباسية، لذلك فهو ينفع دارسي التاريخ لما فيه من دلالات سياسية، و اجتماعية مكثفة و صادقة."[1] بل و يحمل أيضا دلالات أدبية و معايير نقدية لا تكاد تغفل... تأثر و تأثيرا.

فأين كان اسم أبي نواس سيظهر لو لا تجاسر خليفة كالأمين على بعض القيم الأخلاقية... و أين كان اسم أبي العتاهية سيلمع لولا سماء كسماء الرشيد... و ما حفلت به من أنجم زاهرة.

و من أين كان لابن هرمة ذلك المفهوم السابق لعصره حول المعاني المدحية لو لا ما أجهده به المنصور من حصر و اشتراط.

---

1)-المجتمع العراقي في شعر القرن الرابع الهجري: لعبد اللطيف الراوي، مكتبة النهضة-بغداد-د.ت، ص: 85.

2/الخلفاء العباسيون و رواية الشعر:

لقد كان الخلفاء العباسيون بالإضافة إلى قرض الشعر- وفق ما كانوا يؤمنون به من قيم سواء أكانت جمالية أو أخلاقية- يروون الجيد من الشعر، بحكم ما تلقوه على أيدي مؤدبيهم من النحاة، و الرواة، و اللغويين... فمن الخلفاء من كان يحفظ الكثير من الشعر العربي، قصائد و مقطعات و ينافس في ذلك كبار الرواة، فقد روي صاحب الأغاني، أن المهدي قال يوما للمفضل الضبي إن أبيات الحسين بن مطير الأسدي قد أسهرته و هي قوله:

و قد تغدر الدنيا فيضحي فقيرها * * * غنيا و يغني بعد بؤس فقيرها

فلا تقرب الأمر الحرام فإنه * * * حلاوته تفني و يبقى مريرها

و كم قد رأينا من تغير عشية * * * و أخرى صفا بعد اكدرار غديرها

فقال له الضبي: مثل هذا فليسهرك يا أمير المؤمنين[1].

و لا شك أن الخبر، نقد ضمني، ينتصر فيه المهدي لهذا المبدأ الأخلاقي الذي يقدر فيه صاحبه عواقب الأفعال قبل اقترافها، و لعل ذلك ما دفع المفضل إلى ذلك التعقيب؛ فالذي أسهر المهدي ليس استحضار الأبيات...أو تذكرها بل حسن معناها، و موافقتها لما يستوجبه الدين و العقل.

لم يكن يعوز الكثير من الخلفاء العباسيين استحضار الشاهد، و المعنى الموافق للموقف... أو حتى استحضار ما يشبه أبيات أو أنسجة إبداعاته لما كان يلقى في مجالسهم... مما حتم على الشعراء، البحث عن التفرد الإبداعي و البيت الجديد بكل المعايير ؛الأخلاقية عند مريديها أو الجمالية عند معتمديها.

1-الأغاني: لأبي الفرج الأصفهاني،06/26-27.

و من ذلك أن سهلا بن هارون دخل على الرشيد "فوجده يضاحك ابنه المأمون فقال: " اللهم زده من الخيرات و ابسط له في البركات، حتى يكون كل يوم من أيامه موفيا على أمسه، مقصرا عن غده." فقال له الرشيد يا سهل، من روى من الشعر أحسنه وأجوده و من الحديث أصحه و أبلغه و من البيان أفصحه و أوضحه إذا رام أن يقول لم يعجزه؟ فقال سهل: يا أمير المؤمنين ما ظننت أن أحدا تقدمني إلى هذا المعنى، فقال بل أعشى همدان حيث يقول:

وجدتك أمس خير بني لؤي * * * و أنت اليوم خير منك أمس

و أنت غدا تزيد الخير ضعفا * * * كذاك تزيد سادة عبد شمس[1]

و كان هذا دأب الرشيد، الذي يقول عنه ابن عبد ربه، إنه كان يعجب بالشعر الجيد أيما إعجاب، فهو يعجب بأبيات عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر ابن أبي طالب، ويعترف بأنه نطق بالحكمة حيث يقول:

يا أيها الزاجري عن شيمتي سفها * * * عمدا مقال الزاجر الناهي

اقصر فإنك من قوم أرومتهم * * * في اللوم فافخر بهم ما شئت أو باهي

يزين الشعر أفواها إذا نطقت * * * بالشعر يوما و قد يزري بأفواه

قد يرزق المرء لا من فضل حيلته * * * و يصرف الرزق عن ذي الحيلة الداهي

لقد عجبت لقوم لا أصول لهم * * * أثروا و ليسوا و إن أثروا بأشباهي

ما نالني من غنى يوما و لا عدم * * * إلا و قولي عليه الحمد لله [2]

و نجده مرة أخرى، يسعى إلى ترسيخ هذا المذهب في رواية الشعر و قرضه و هو يخاطب المأمون-و قد علم أنه يقول الشعر- "يا بني ما أنت و الشعر إنما الشعر أرفع حالات الدني، و أقل حالات السري."[3]

---

1)-العقد الفريد: لابن عبد ربه،02/ 136، 137.

2)-نفسه: 02/ 182-183.

3)-تاريخ الخلفاء: للسيوطي، ص: 357.

و ربما فاق الرشيد أحيانا في رواية جيد الشعر، و حسن الاستشهاد به كبار الرواة... فهذا الأصمعي يقول[1]:" انصرفت ليلة من دار الرشيد و أنا أشكو علة ثم غدوت إليه فقال: يا أصمعي كيف بت؟ فقلت: بليلة النابغة يا أمير المؤمنين، فقال: إنا لله !هو قوله:

فبت كأني ساورتني ضئيلة * * * من الرقش في أنيابها السم ناقع

فقلت: و الله يا أمير المؤمنين، ما أخبرت خبره، و إنما أردت قوله:

كليني لهم يا أميمة ناصب * * * و ليل أقاسيه بطيء الكواكب

و يظهر جليا أن الرشيد، أصاب حال الأصمعي، و استحضر ما يوافق من أحوال النابغة الذي لم تكن له حسبهم ليلة واحدة بل ليال.

و على هذا المنوال كان الخلفاء العباسيون يقوّمون الرواة، الإخباريين و يحثهم على بذل الجهد و الاستعانة بالبحث، حتى استحالت حياتهم كلها شعرا، إنشادا أو غناءً أو استشهادا،يروى عن الواثق أنه حين أخبره وزيره ابن أبي دؤاد أن قوما حاولوا عنده ثلبه و النيل منه، فسأله بن أبي دؤاد عن رده عليهم فقال الواثق: قلت لهم:

و سعى إلي بعيب عزة نسوة * * * جعل الإله خدودهن نعالها [2]

و سأل المهدي مرة من حضره عن صدر بيت، فلما أعياهم خرج يعقوب بن داود إلى المجتمعين بالباب يسألهم عن قائل هذا الشعر:"و محترس من مثله و هو حارس" لأن الخليفة يسأل عنه فأخبره أحد الحاضرين بأنه للبردخت من قوله:

كساع إلى السلطان ليس بناصح * * * و محترس من مثله و هو حارس[3]

و يتكرر مثل هذا الموقف عند أكثر الخلفاء العباسيين، فهذا الرشيد يجتمع حول بابه وجوه العرب من أهل الشام و الجزيرة و العراق، إذ خرج وصيف كأنه درة فقال لهم:" يا معشر الصحابة، إن أمير المؤمنين يقرأ عليكم السلام و يقول لكم: " من كان منكم يروي قصيدة الأسود بن يعفر:

نام الخلي و ما أحس رقادي * * * و الهم محتضر لدي وسادي

فليدخل فلينشدها أمير المؤمنين و له عشرة آلاف درهم"[4]

---

1)- ثمار القلوب: للثعالبي، ص: 635.

2)-العقد الفريد: لابن عبد ربه،145/02.

3)-ينظر المحاسن و المساوي: للبيهقي، ص: 162.

4)-الأغاني: لأبي الفرج الأصفهاني: 20/13.

و طلب المنصور حمادا الراوية... فلما مثل بين يديه، قال له: أنشدني شعر هفان بن همام بن نضلة يرثي أباه فأنشده..."[1]

و ربما ثارت ثورة الخليفة إذا لم يجد من يلبي رغبته، و يقضي لبناته كما فعل المنصور حين طلب من أهل بيته أن يرووا قصيدة أبي ذؤيب الهذلي في رثاء أبنائه فغضب و عد ذلك قلة رغبته منهم في الأدب. [2]

و لعل ذلك أكبر دافع على ازدهار الشعر، و فنونه،قال أسامة بن معقل: كان السفاح راغبا في الخطب و الرسائل، يصطنع أهلها و يثيبهم عليها، فحفظت ألف رسالة، وألف خطبة طلبا للحظوة عنده فنلتها، و كان المنصور بعده معنيا بالأسمار و الأخبار، وأيام العرب يدنى أهلها و يجزيهم عليها، فلم يبق شيء من الأسمار و الأخبار إلا حفظته طلبا للقربة منه فظفرت، و كان موسى مغرما بالشعر يستخلص أهله، فما تركت بيتا نادرا فاخرا،

و لا شعرا و لا نسيبا سائرا ،إلا حفظته، و أعانني على ذلك طلب الهمة في علو الحال، و لم أر شيئا أدعى إلى تعلم الآداب من رغبة الملوك في أهلها و صلاتهم عليها، ثم زهد هارون في هذه الأربعة فأنسيتها حتى كأني لم أحفظ منها شيئا. [3]

و كان المعتصم يعجب بشعر لبيد، فقد طلب من جلسائه يوما أن ينشدوه قصيدته : بليناو ما تبلى النجوم الطوالع.

فقام بعضهم فأنشد حتى بلغ قوله:

و قد كنت في أكناف دار مضنة * * * ففارقني جار بأربد نافع

فبكى المعتصم حتى جرت دموعه، و ترحم على المأمون و قال هكذا كان -رحمة الله عليه- ينشدها لي، ثم اندفع ينشد باقيها، قال بعض جلسائه: "فوالله لعجبنا من حسن ألفاظه و صحة إنشاده، و فصاحته، و جودة اختياره."[4]

---

1)-السابق: 06/77-78.

2)-نفسه:06/287.

3)- تاريخ الأدب العربي: لأحمد حسن الزيات، دار الثقافة-بيروت- لبنان، ط28، د.ت، ص: 284.

4)-الأغاني: لأبي الفرج الأصفهاني،15/362-363

إن الرواية بهذا الفهم المعتصمي، لا تعني تذكر قائل الشعر في حد ذاته، بل تتجاوز ذلك إلى صيرورتها ذكرى، تستعاد فتبكي أو تفرح و لا شك أن مثل هذا الخليفة، و من سار على دربه سينفث من روحه في نفوس جلّاسه و يبعث فيهم رواية الشعر العذب الجيد الداعي إلى الوفاء و الإخلاص للأحبة و لو بذرف دمعات تطفيء حر الذكرى...

و إن كان البكاء قد صار شعارا لكثير من الخلفاء العباسيين و ندمائهم و من الأطرف ما حملت كتب الأدب،تلك المسابقة في الرواية و التي كان على كل مشارك أن يروي أروع ما يحفظه من أبيات؛ قال أحمد بن دؤاد:" دخلت على المأمون في أول صحبتي إياه، و قد توفى أخوه أبو عيسى، و كان له محبا، و هو يبكي و يمسح عينيه بمنديل فقعدت إلى جنب عمرو بن مسعدة و تمثلت قول الشاعر:

نقص من الدنيا و أسبابها * * * نقص المنايا من بن هاشم

و لم يزل على تلك الحال ساعة يبكي، ثم مسح عينيه و تمثل:

سأبكيك ما فاضت دموعي فإن تفض * * * فحسبك مني ما تجن الجوانح

ثم التفت إليّ فقال: هيه يا احمدا فتمثلت قول عبدة بن الطبيب:

عليك سلام الله قيس بن عاصم * * * و رحمته ما شاء أن يترحما...

فبكى ساعة ثم التفت إلى عمرو بن مسعدة، فقال: هيه يا عمرو، قال: نعم يا أمير المؤمنين:

بكوا حذيفة لم تبكوا مثله * * * حتى تعود قبائل لم تخلق

فإذا عريب و جوار معها يسمعن ما يدور بيننا، فقلن: اجعلوا لنا معكم في القول نصيبا، فقال لها المأمون: قولي فرب صواب منك كثير، فقالت:

كذا فليجل الخطب و ليفدح الأمر * * * و ليس لعين لم يفض ماؤها عذر

كأن بني العباس يوم وفاته * * * نجوم سماء خر من بينها البدر

فبكى و بكينا"[1].

---

1)- السابق: 10/ 202.

و قد يظن ظان أننا بصدد الحديث عن مجالس معدودة نادرة، قلما يصدق عليها ما ذكرناه، مما سيجعلنا نذكر أن" أخبار المأمون تدل جميعا على أنه كان يعقد مجالس تنشد فيها الأشعار و يتناقش الناس حولها مما يشير إلى اهتمامه العظيم بالشعر و روايته."[1]

و بلغ الأمر ببعض الخلفاء العباسيين، أن رووا ما قيل في مدح غيرهم واتخذوه دليلا يواجهون به القادم عليهم متى رأوا منه نقصا أو قصورا في إبداع صفات مدحية، كما فعل المنصور مع إبراهيم بن هرمة حين واجهه بأبيات قالها في مدح بني أمية [2]، و قبله فعل السفاح مثل ذلك مع أبي نخيلة[3] و يتكرر الموقف ذاته مع الحسين بن مطير حينما دخل على المهدي فمدحه بأبيات، فغضب المهدي وواجهه بأبيات قالها في معن بن زائدة هي أجمل و أحسن مما قاله في مدح الخليفة. [4]

و يغضب الرشيد على يزيد بن مزيد حين يسأله عمن قال فيه:

"تراه في الأمن في درع مضاعفة * * * لا يأمن الدهر أن يدعى على عجل

لله من هاشم في أرضه جبل * * * و أنت و ابنك ركنا ذلك الجبل

فقال يزيد لا أعرفه يا أمير المؤمنين، فقال الرشيد: سوءة لك من سيد قوم يمدح بمثل هذا الشعر، و لا تعرف قائله، و قد بلغ أمير المؤمنين فرواه، و وصل قائله وهو مسلم بن الوليد."[5]

---

1)-المأمون الخليفة العالم:للدكتور محمد مصطفى هدارة(سلسلة أعلام العرب)، الدار المصرية للتأليف و الترجمة-مصر- د.ت، ص: 106.

2)-البيان و التبيين: للجاحظ، 184/03، 185.

3)-زهر الأدب: للحصري، 04/ 995- 996.

4)-الأعلام: للزركلي، 06/ 244.

5)-الأغاني: لأبي الفرج الأصفهاني،318/18، 319

و كأن السيادة حسب الرشيد، لا تتم إلا برواية الشعر الحسن، الداعي إلى الإشادة بأخلاق ذوي الهمم العالية... و لنا أن نتصور أثر هذا التعنيف و حال يزيد بعد ذلك... لنقرر مدى تأثير الخلفاء فيما سواهم بدفعهم إلى رواية الشعر الراقي المعنى، المحكم المبني، الداعي إلى المروءة و كريم الخلق.

لقد كان الخلفاء بذلك يعلمون من حولهم و يحثونهم على معرفة الشعر و روايته و إكرام قائله و الاسترسال في طلب ذلك قد يفوت علينا غرض هذا المبحث و يكفي أن نحيل إلى ما وقع بين الأمين و أبي نواس [1]، و بين المأمون و بن جبلة[2].

---

1)-مختار الأغاني: لابن منظور،04/ 92- 93.

2)-العقد الفريد: لابن عبد ربه،02/ 165- 166.

3/امتحان الخلفاء العباسيين الشعراء و اقتراحهم المواضيع الشعرية:

لقد شكل الخليفة بالنسبة للكثير من الشعراء هاجسا، يظل يطارده و ناقدا يحسب له ألف حساب، ناقد من نوع آخر، يملك من أدوات النقد و سلطته، ما لا يملكه الناقد المتخصص، فعلاوة على الرواية، و قرض الشعر، و الدربة كان بإمكان الخليفة أن يزهق بإشارة واحدة روح شاعر نبا سيف نظمه، أو غفا شيطان شعره، فأنقص، أو زاد و يذكر الجاحظ ذلك بدءا بالزي الحسن[1]، و انتهاء إلى الشعر الجيد مرورا بالصوت الشجي، و الإنشاد المتقن.

فكان بذلك لا يصل إلى حضرة الخلفاء العباسيين من الشعراء إلا من امتلك القدرة الفنية، و قدر على الإجادة و الإبداع حتى يكون في مستوى ما قد يعرض له من عوارض،

و يطرأ عليه عرضا، أو عمدا من طواريء.

فقد كان بعض الخلفاء العباسيين إذا شك في شاعرية شاعر ربما امتحنه، و صارحه بشكوكه مرجئا الحكم إلى ما بعد الامتحان كما فعل الرشيد مع أبي الغول الذي دخل عليه فأنشده مديحا له فقال الرشيد: " يا أبا الغول، قال لبيك يا أمير المؤمنين، فقال: إن في أنفسنا من شعرك شيئا فلو كشفته بشيء تقوله على البديهة؟ قال:والله ما أنصفتني يا أمير المؤمنين، قال: و لم؟ و إنما هذا امتحان، قال: لأنك جمعت هيبة الخلافة، و جلالة الملك، و حيرة الاقتضاب، على أني أرجو أن أبلغ من ذلك ما تريد فالتفت فإذا الأمين قائم عن يمينه و المأمون عن يساره فأنشأ يقول:

بنيت لعبد الله بعد محمد * * * ذرا قبة الإسلام فاخضر عودها

هما طنباها بارك الله فيهما * * * و أنت –أمير المؤمنين– عمودها

---

1)-ينظر البيان و التبيين: للجاحظ،3/ 60، و ينظر كذلك: الشعراء و إنشاد الشعر: لعلي الجندي، ص: 81.

قال الرَشِيدُ: و أنت بارك الله فيك، و أحسنت و أجدت، فقال: يا أمير المؤمنين امتحنّ بما شئت ليزول ما بقلبك من الريبة و الشك في شعري: فقال لا حاجة بنا إلى ذلك، أنت شاعر مقتدر، و الذي قيل فيك باطل "[1]

فالرشيد كان بحاجة إلى هذا الامتحان، ليزيل ما علق بنفسه من أقوال باطلة عن شاعرية أبي الغول، الذي وجد نفسه أمام ناقد من طراز خاص، جمع كل معاني السطوة، و الهيبة و الجلال. و إن كان هذا الامتحان المباشر، الذي قل نظيره عند خلفاء بني العباس قد أخذ بعدا حضاريا ألطف، وأحفظ لكرامة الشاعر، فيما بعد و كأني بهم عمدوا إلى هذا الشكل الثاني، طلبا للمزيد من الإبداع و طمعا في إنتاج الأجود و الأروع، بكل ما تعنيه هاتان الكلمتان من بداهة، و إحكام صياغة و خدمة لمبادئ سامية فكثيرا ما كان رسل الخلفاء –العباسيين– يخرجون إلى الحاضرين و يطلبون منهم بأمر من الخليفة أن يجيزوا بيتا من الشعر. [2]

و قد يكون ذلك أحد شروط الدخول على الخليفة، و نيل جائزته، كما فعل المعتصم حين بعث إلى من ببابه من الشعراء" من كان منكم يحسن أن يقول مثل منصور النمري في أمير المؤمنين الرشيد:

إن المكارم و المعروف أودية * * * أحلك الله منها حيث تجتمع

فليدخل، فقال محمد بن وهب: فينا من يقول خيرا منه، و أنشده:

ثلاثة تشرق الشمس ببهجتهم * * * شمس الضحى، و أبو إسحاق و القمر.

يحكي أفاعيله في كل نائلة * * * الغيث و الليث و الصمصامة الذكر

فأمر بإدخاله، و أحسن صلته."[3]

---

1)– العقد الفريد: لابن عبد ربه،01/ 310.

2)–الورقة: لابن الجراح، تحقيق عبد الوهاب عزام و عبد الستار أحمد فراج، دار المعارف– مصر– ، ط02–د.ت، ص: 19.

3)–العمدة: لابن رشيق،02/138–139.

و من ثمة نلاحظ:"مدى الدور الذي لعبه الخلفاء في شحذ همم الشعراء و دفعهم إلى إنتاج الأجود و الأروع من الأشعار"[1].

فهذا المستعين يقول للشعراء و قد قصدوه: لست أقبل إلا ممن قال مثل قول البحتري في المتوكل:

و لو أن مشتاقا تكلف فوق ما * * * في وسعه لمشي إليك المنبر

فحبر البلاذري أبياتا فيها:

و لو أن برد المصطفى إذ لبسته * * * يظن لظن البرد أنك صاحبه

و قال وقد أعطيته ولبسته* * * نعم هذه أعطافه ومناكبه

فأعجب المستعين بالأبيات و أجاز البلاذري[2].

و إن كان إعجاب المستعين خاضعا لوقع تلك المبالغات التي جعلها مثالا و نموذجا يتسابق حوله، و هو ما فطن له البلاذري حين أنشأ معنى قريبا من معنى "النموذج" في مبالغته.

و قد أدت هذه الامتحانات المفاجئة ، لبعض الشعراء إلى الاستعداد و التحضير المسبق، باحتمال ما قد يقع بينه و بين الخليفة من حوادث قد لا تخطر ببال، فإذا سلم الخاسر، يقول لأحد أصحابه و قد سأله عن بعض ما بين يديه من قراطيس فيها أشعار يرثي ببعضها أم جعفر و ببعضها جارية غير مسماة، و ببعضها أقواما لم يموتوا، و أم جعفر يومئذ باقية:" تحدث الحوادث فيطالبونا بأن نقول فيها، و يستعجلونا و لا يجمل بنا أن نقول غير الجيد، فنعد لهم هذا قبل كونه، فمتى حدث حادث أظهرنا ما قلناه فيه قديما على أنه قيل في الوقت."[3]

و مما يستوقفنا في هذا الخبر، عبارة"و لا يجمل بنا أن نقول غير الجيد." التي تدلك على الإلحاح في طلب الجيد من الشعر، من قبل الخلفاء حتى و إن اقتضى ذلك التضحية بصدق العاطفة، و حرارة المشاعر.

---

1)-الحياة الأدبية في مجالس الخلفاء العباسيين: لمحمد البشير قط، رسالة ماجستير، ص: 99.

2)-وفيات الأعيان: لابن خلكان، 06/ 24.

3)-الأغاني: لأبي الفرج الأصفهاني، 19/ 290.

لقد كان الخلفاء العباسيون يطالبون الشعراء، بالشعر في كل مناسبة علت أو سفلت، جلت أو حقرت...، يطلبون منهم النظم في أغراض معينة بحسب الظروف؛ عند بناء القصور، في المتنزهات، أثناء الصيد، في مجالس الشراب...، و لعل أكثر هؤلاء الخلفاء ولوعا بهذا الشعر المناسباتي المعتصم، و الواثق، و المتوكل، الذين كانوا إذا بنى أحدهم قصرا أو أمر الشعراء أن يعملوا فيه شعرا. (1)

ولذلك كثر التسابق و أفسح المجال أمام الشعراء ليأتوا بما جادت به قرائحهم المجهدة،و نفوسهم الموهنة جراء بعض الخلفاء الذين لا يحسنون إلا الأمر و التكليف، فقد دخل أبو دلامة على المنصور و عنده المهدي ، و عيسى بن موسى فقال له المنصور: اهج بعض من في المجلس، فقال في نفسه من أهجو الخليفة أم ابن أخيه ما أحد أحق بالهجاء مني، فقال:

ألا أبلغ لديك أبا دلامة * * * فلست من الكرام و لا كرامة

جمعت دمامة و جمعت لؤما * * * كذاك اللؤوم تتبعه الدمامة

إذا لبس العمامة قلت: قرد * * * و خنزير إذا وضع العمامة (2)

و قد كان المهدي مولعا بالصيد، يستصحب فيه الشعراء و يأمرهم بنظم شعر يوافق لمزاجه، حتى و إن كان هجاء.3

أو ربما أذن للشعراء و طلب إليهم وصف سيف بين يديه. (4)

و في بعض الأحيان يطلب الخلفاء من الشعراء أن ينظموا شعرا في معنى ما قيل نثرا، كما فعل المعتصم مع محمد بن أبي محمد اليزيدي، حين سأله أن يقول أبياتا في معنى طلوع القمر بعد غيابه مدة كما غاب حبيب عن حبيبه، و له بكل بيت مائة دينار.5

و المتوكل الذي دخل عليه البحتري، و هو جالس على بركة فطلب منه وصفها6.

---

1)-معجم البلدان: لياقوت الحموي،175/03.

2)-المحاسن و المساوىء: للبيهقي، ص: 262.

3)-ينظر الأغاني: لأبي الفرج الأصفهاني،04/ 52-53.

4)-العقد الفريد: لابن عبد ربه،01/ 180- 181.

5)-ينظر أخبار البحتري: للصولي، ص: 91.

6)- ينظر الأغاني: لأبي الفرج الأصفهاني، 07/ 169.

والمأمون حين وضع لمحمد بن أبي محمد اليزيدي نموذجا شعريا و أمره بأن يقول في نحوه[1] و لعل أغرب ما صادفنا من اقتراحات الخلفاء العباسيين على شعرائهم، اقتراح الأمين على أبي نواس، حين قال له:" إنه عرضت بقلبي أمثال أحببت أن تجعلها في شعر، فإن فعلت ذلك أجزت حكما فيما تطلب، فقال: و ما هي يا أمير المؤمنين، قال قولهم: عفا الله عما سلف، و بئس و الله ما جرى فرسي، و اكسري عودا على أنفك، و تمنعني أشهى لك، قال فقال أبو نواس، حكمي أربع وصائف مقدودات فأمر بإحضارهن فقال:

فقدت طول اعتلا لك * * * و ما أرى في مطالك

لقد أردت جفائي * * * و قد أردت وصالك

ماذا أردت بهذا * * * تمنعني أشهى لك.

و أخذ بيد وصيفة فعز لها، ثم قال:

قد صحت، الإيمان من حلفك * * * و صحت حتى مت من خلفك

بالله يا ستي احنثي مرة * * * ثم اكسري عودا على أنفك

ثم عزل الثانية، ثم قال:

فديتك ماذا الصلف * * * و تستمك أهل الشرف

صلي عاشقا مدنفا * * * قد أعتب مما اقترف

و لا تذكري ما مضى * * * عفا الله عما سلف

ثم عزل الثالثة، و قال:

و باعثات إليّ في الغلس * * * أن ائتنا و احترس من العسس

حتى إذا نوم العداة و لم * * * أخش رقيبا و لا سنا قبس

ركبت مهري و قد طربت إلى * * * حور حسان نواعم لعس

فجئت و الصبح قد نهضن له * * * فبئس و الله ما جرى فرسي

فقال: خذهن لا بارك الله لك فيهن[2].

---

1)-السابق:20/213-214.

2)-تاريخ الأمم و الملوك: للطبري، أبي جعفر محمد بن جرير، مؤسسة عز الدين للطباعة و النشر، ط1، 1986، 04/ 586.

إن هذه الأخبار و مثيلاتها، لتوحي حقا، بما كان يعانيه بعض الشعراء أمام إرادات و رغبات الخلفاء التي لا تنتهي و لا تهدأ، و هي حسب غايتها لا تجاوز امتحان إثبات الجدارة تارة، أو هي من قبيل التأريخ لحياة غاية في الترف، و التفرد ...، مما يجعل الكثير من النصوص الشعرية، تحفل بالكثير من أخلاق الخلفاء الخفية، التي ترفعت عنها كتب التأريخ و جفت دونها أقلام المؤرخين.

4/ المساجلات الشعرية و المشاركة فيها:

لقد كان كثيرا ما يفتح الخلفاء العباسيون مجال التسابق بين الشعراء، و قد رأينا من ذلك، في المباحث السابقة، إضافة إلى الإبداع الذاتي، الرواية، و امتحان الشعراء و سنعرض في هذا المبحث لمجال آخر من مجالات إبداء أراء نقدية مشوبة ببحث غير مباشر عن إرساء قواعد جمالية أو أخلاقية تبعا لشخصية كل خليفة،إذ لم يكتف هؤلاء الخلفاء بدفع الرواة إلى تتبع كل جميل، و مفيد و امتحان الشعراء و إجهاد قرائحهم للإتيان بكل جديد، و مبدع، ليلجأوا إلى مجال آخر، طريف هو مجال المساجلات الشعرية، التي تتوج غالبا بعطية مغرية، تجعل الشعراء المشاركين فيها يبذلون قصارى جهدهم لإرضاء الخليفة.

لكن السؤال الذي يحسن بنا أن نطرحه، هو كيف سخر الخلفاء العباسون هذا الضرب من الإبداع لخدمة نظراتهم النقدية؟.

لقد كانت مشاركة الخلفاء العباسين في المساجلات توحي حقا بما كانوا يسعون إليهم من جنى؛ فقد يكون الخليفة مجرد مشاركا حينا، كما قد يكون في أحايين كثيرة هو محور هذه المساجلة، التي تبدأ غالبا بأن يقول الخليفة البيت أو البيتين ثم يبدأ جلساؤه بإثراء المساجلة بالنسج على منوال مذهب الخليفة و السير في نسقه الإبداعي، و قد لا يكون بين يدي الخليفة أحد، فيأمر بإحضار بعض الشعراء ممن يتوسم فيهم القدرة الإبداعية على إجازة أبياته.

فقد حلف الرشيد ألا يدخل إلى جارية له أياما، و كان يحبها، فمضت الأيام و لم تسترضه، فقال:

صد عني إذ رآني مفتتن * * * و أطال الصد لما أن فطن

كان مملوكي فأضحى مالكي * * * إن هذا من أعاجيب الزمن

ثم أحضر أبا العتاهية، فأجازهما بقوله:

عزة الحب أرته ذلتي * * * في هواه و له وجه حسن

فلهذا صرت مملوكا له * * * و لهذا شاع ما بي و علن[1]

---

1)-الأغاني: لأبي الفرج الأصفهاني،78/04.

و ارتج يوما على الرشيد، فأمر بإحضار الشعراء، و رصد لذلك جائزة؛ فقد ذكر الرواة أن الرشيد صنع قسيما من الشعر و هو:

الملك لله وحده

ثم ارتج عليه، فقال استدعوا من بالباب من الشعراء، فدخل عليه جماعة منهم الجماز، فطلب منهم الرشيد أن يجيزوا قوله، فبدر الجماز فقال:

و للخليفة بعده

و طلب منه الرشيد أن يزيد فقال:

و للمحب إذا ما * * * حبيبه بات عنده

فاستحسن الرشيد منه ذلك، و أجازه"[1]

و ما يمكن أن نلاحظه هنا، هو حاجة الخلفاء فعلا إلى من يجيز أبياتهم، أو حتى قسيماتهم، فما كان الرشيد ليفخر بنفسه، و قد أفرد الملك لله و أكده، ثم يتدرج حتى يخلعه على محب بات حبيبه عنده.

و قد يرتج على الخليفة في أنصاف الليالي، فيبعث من يفزع النوام، من الشعراء، و أهليهم لأجل تلبية نزوة ملك، و إجازة بيت من الشعر، و من أشهر من أثرت عنه أخبار كثيرة من خلفاء بني العباس الرشيد؛ "فقد عمل في الليل بيتا و رام أن يشفعه بآخر، فامتنع القول عليه، فقال عليَّ بالعباس، فلما طرق عليه ذعر و فزع أهله، فلما وقف بين يدي الرشيد قال له: و حملت إليك بسبب بيت قلته، و رمت أن أشفعه بمثله فامتنع القول علي... [2]

و ربما لعب- الرشيد- دور الحكم، و على نحو ما دار بينه و بين الأصمعي، و أبي حفص الشطرنجي، إذ قال الرشيد في نهايتها:" أنا و الله أشعر منكما."[3]

و قد تخضع المساجلة لرغبة الخليفة، فيفرض على الشاعر المعنى و الموضوع سما أو سفل؛ فهذا الأمين لا يتحرج من أن يقول شعرا في أحد غلمانه، و يطلب من يجيزه له، كما حدث حين أصيب غلامه المفضل "كوثر" برجمة في وجهه و هو يتفرج على الحرب

---

1)-فوات الوفيات: لابن شاكر الكتبي، 04/ 227.

2)-وفيات الأعيان و أنباء أبناء الزمان: لابن خلكان، 03/ 22.

3)-الأغاني: لأبي الفرج الأصفهاني، 98/23.

فأخذ الأمين يمسح على وجهه و يقول:

ضربوا قرة عيني * * * و من أجلي ضربـــوه

أخذ الله لقـــــلبي * * * من أنـــاس أحـــرقـــوه

و أراد زيادة في الأبيات فلم يواته طبعه، فأحضر عبد الله بن أيوب التيمي الشـــاعر، و أمـــره بإجازة البيتين فقال:

ما لـــمن أهوى شبيه * * * فـــبه الـــدنـــيا تـــتيه

و صلـــه حلو و لكن * * * هـــــجرة مـــر كريـــه

من رأي النـــاس لـــه الفـــــضل عـــليـــهم حسدوه

مثل ما قد حسد القـــا * * * ئـــم بالملـــك أخـــوه (1)

و ممن شهد له بسلامة الطبع، و حضور البديهة، و الفطنة المأمون، الذي كان يدلو بدلوه فـــي المساجلات، قال إبراهيم بن أبي محمد اليزيدي: " كنت عند المأمون يوما و بحضرته عريـــب، فقالت لي على سبيل الولع بي: يا سلعوس، و كان جواري المأمون يلقبني بذلك عبثا، فقلت لها:

و قل لعريب لا تكوني مسلعسة * * * و كوني كتتريف و كوني كمؤنسة

فقال المأمون:

فإن كثرت منك الأقاويل و لم يكن * * * هنالك شك أن ذا منك وسوسة

قال: فقلت له:" كذا و الله يا أمير المؤمنين، أردت أن أقول و عجبت من ذهن المأمون وطبعه و فطنته".(2)

و قد تتنامى رغبة الخليفة في إجازة بيت من الشعر حتى لا تفرق بين شاعر و جليس، طال أو قصر باعه في الشعر، فقد دخل الزبير بن بكار يوما على المعتز، فقال له: يا أبا عبد الله، قـــد قلت أبياتا في مرضي هذا و قد أعي عليّ إجازة بعضها و أنشده:

إني عرفت علاج القلـــب من وجعي * * * و ما عرفت علاج الحب و الهلع

جزعت للحب و الحمى صبرت لهـــا * * * فليس يشغلني عن حكيـــم وجعي

---

1)- تاريخ بغداد: للخطيب البغدادي، أبي بكر بن علي بن ثابت دار الكتاب العربي -بيروت-339/03.

2)-الأغاني: لأبي الفرج الأصفهاني،20/ 273.

فقال الزبير:

و ما أمل ببيـــتي ليـلتـــي أبدا * * * مع الحبيب و يا ليت الحبيب معي[1]

و يبدو أن المعتز لا يفوت فرصة صغيرة و لا كبيرة إلا و يقول فيها شـــعرا، و يـــدعو مـــن يجيزه، فبينما هو يشرب يوما إذ أقبل غلامه الأثير لديه يونس بن بغا، و عليه قبـــاء أخضـــر، فقال المعتز:

شبهت حمـــرة خده فـــي ثوبه * * * بشـــقائق الـــنعـــمان في الـــــنمام

ثم طلب من جلسائه أن يجيزوه، فبدر بنان المغني فقال:

و الـــقد منـــه إذا بـــدا مـــتثنيا * * * بالغـــصـــن في لـــين و حـــسن قوام [2]

و ممن طالتهم حمى الشعر، و بلغت بهم حد تجاوز حق الضيف، المعتضد الـــذي يـــذكر عنـــه الرواة أنه: "اجتمع ليلة- عنده- ندماؤه فلما انقضى السمر و صار إلى حظاياه، و نـــام القـــوم السمار نبههم من نومهم خادم، و قال يقول لكم أمير المؤمنين إنه أصابه أرق بعدكم و قد عمـــل بيتا أعياه ثانية فمن عمل ثانيه فله جائزة، و هو هذا البيت:

و لما انتبهنا للخيال الذي سرى * * * إذ الـــــدار قـــفـــــر و المزار بعيد

قال: فجلس القوم من فرشهم يفكرون في ثانيه، فبدر واحد منهم فقال:

فقلت لعيني عاودي النوم و اهجعي * * * لعل خيالا طارقا سيـــعود.

قال: فلما رجع الخادم إلى المعتضد وقع منه موقعا جيدا، و أمر له بجائزة سنية".[3]

فالشعر، و هاجس الإبداع عند هذه الزمرة- الخلفاء- لا تضبطه ضوابط زمنيـــة، تحـــد مـــن رغبتهم الحادة في إكمال ما عجزوا عن إكماله، و إتمام الغاية التي بدؤوها حتى و إن ضاق بهم بعض هؤلاء(المطلوبين) و عرض كما يوحي هذا البيت السابق، الذي تلطف فيه صاحبه ليجعل الخليفة يعاود النوم، و ينتظر الخيال العابر يحدوه أمل" لعل" و تسويف

---

1)-الوافي بالوفيات: للصفدي،ص: 293.

2)-الديارات: الشابشتي، تحقيق كوركيس عواد، دار المعارف -بغداد- ط02 ،1966 ، ص: 116- 167.

3)-البداية و النهاية: لابن كثير،11/ 94.

" السين" و يسوقه قدر "الدار المقفرة و المزار البعيدة".

و قد يستدعي الأمر، التعريض الجلي الذي يبحث في نفس الخليفة اللامتناهي النزوات الإحباط، فيستحيل منقودا بعد أن كان ناقدا، و ينتهي عن تعسفه و يقلع عن سوء التزامه بأبجديات الإبداع الشعري كما يحدثنا الرواة عن المستعين الذي كان يعمل شعرا ركيكا، ضعيفا، و كانت به لثغة تظهر أثناء كلامه و أثناء إنشاده شعره، مما جعل ندماءه يسخرون منه، و يتندرون به، من وراء ذلك قوله:

أحببت ظبيا ثمين * * * كأنه غثن تين

بالله يا عالمين * * * ما في الثما مثلمين

من لامني في هواه * * * لوثته بالعجين

يريد أن يقول:

أحببت ظبيا سمين * * * كأنه غصن تين

بالله يا عالمين * * * ما في السما مسلمين

و قيل إنه كان يأمر المغنين أن يغنوه هذا الشعر و أشباهه، فيتضاحكون و يتغامزون عليه: (1)

و قد قال مرة بيتين و طلب من يجيزهما و هما قوله:

شربت كأسا أذهبت * * * عن ناظريَّ الخمرا

فنشطتني و لقد * * * كنت حزينا خاسرا.

فقال أحدهم:

هذا خرا هذا خرا * * * هذا خرا هذا خرا

لكنه كما يقول ابن شاكر" كان للطف أخلاقه يحتمل ذلك منهم. (2)

و من أمثلة المساجلات التي كانت تفرض على الخليفة إظهار مقدرته على فهم الشعر، ما حدث للمهدي، فقد وعد" عيسى بن دأب جارية ثم وهبها له، فأنشده عبد الله بن مصعب الزبيري معرض بقول مضرس الأسدي:

فلا تيأسن من صالح أن تناله * * * وإن كان قد مابين أيد تبادره.

---

1)-فوات الوفيات: لابن شاكر الكتبي،01/ 141.

2)-نفسه: 01/ 142.

فضحك المهدي، و قال:ادفعوا إلى عبد الله فلانة لجارية أخرى، فقال عبد الله بن مصعب:

أنجز خير الناس قبل موعده * * * أراح من مطل و طول كده.

فقال بن دأب ما قلت شيئا، هلا قلت:

حلاوة الفضل بوعد ينجز * * * لا خير في العرف كنهب ينهز[2]

و من الخلفاء الذين شاع عنهم فتح مجال التسابق أمام الشعراء للإجادة في فن القول المنصور؛ الذي طلب من مرافقيه إلى الحج –مرة– أن يجيزوا بيتا من الشعر قاله،و وعدهم بجبة وشي كانت عليه، فبادر بشار إلى ذلك، و فاز بالجبة. [2]

و هكذا نسجل في ختام هذا المبحث، لأن ما أنتجته هذه المساجلات من أشعار سواء أكانت للخلفاء أو للشعراء تعبر عما كان يؤمن به الطرفان من معايير إبداعية، و إن خضعت غالبا لإرادة الخلفاء و هو ما يدفعنا إلى الحكم لهم بأهمية إسهاماتهم النقدية في الاقتراب بفن الشعر خاصة، و الأدب عامة، من غايات تتأرجح بين الأخلاقية والجمالية.

كما أنها– الإسهامات– شكلت "حافزا كبيرا للشعراء ليتنافسوا في حلبة الإبداع و الفن من أجل الظفر بجوائز الخلفاء."[3]

كما نسجل ملاحظة أخرى، حول ما يتميز به هؤلاء الخلفاء، و هي فقدهم النفس الشعري المجاري، لنفس ذوي الاختصاص، و إنما هي البديهة و الفطرة التي تشكل بالنسبة لذلك الجو العام، الشرارة الباعثة على الإبداع المحفزة على بذل الجهد.

و قد صرح المتوكل ذات يوم بتأبي الشعر عليه، حين قال:" إني ربما قلت البيت الواحد، فإذا جاوزته توقفت."[4]

كما نلاحظ أن هذه المساجلات لا تعبر عن نظرية واعية تكتمل أركانها مع كل خليفة، و إنما هي جهود تتراوح بين خصوصية كل خليفة، و الظروف المحيطة به، لكنها لا تشذ عن المعياريتين السابقتين، إلا بمقدار ما تثريها و تخصبها.

---

1)– زهر الآداب: للحصري،02/ 374.

2)–العقد الفريد: لابن عبد ربه،05/ 382.

3)–الحياة الأدبية: لمحمد البشير قط/ رسالة ماجستير،ص:77.

4)–بدائع البدائه: لابن ظافر الأزدي،جمال الدين علي ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم،مكتبة الأنجلو مصرية –القاهرة– 1970 ص: 96.

5/ مجال السياسة و مجالس الحكم:

لقد عرفنا في المباحث السابقة، أن الخلفاء العباسين كانوا يتأثرون بالشعر، و يأثرون فيه، و قد فطن الشعراء لذلك، فأخذوا يتدخلون في أمور خاصة[2]، متفننين في هذا الضرب الأثير من القول، طامعين من ورائه في الرضا، أو المال، أو شرف الصحبة و المنادمة، أو القيام بدور الوساطة أحيانا.

و لذلك كله، كان على الشاعر أن يحسن طرق الباب، و إحكام الصنعة، و الابتعاد عما من شأنه أن يصير عليه وبالا، و هو ما يصوره لنا صاحب الأغاني عن الحسين بن الضحاك الخليع الذي قال:" كنت عازما على أن أرثي الأمين بلساني كله، و أشفي لوعتي، فلقيني أبو العتاهية فقال لي: يا حسين أنا إليك مائل، و لك محب و قد علمت مكانك من الأمين، و إنك لحقيق بأن ترثيه إلا أنك قد أطلت لسانك من التلهف عليه ، و التوجع له بما صار هجاء لغيره و ثلبا له، و تحريضا عليه، و هذا المأمون منصب إلى العراق قد أقبل عليك فأبق على نفسك....يا ويحك أتجسر أن تقول:

تركوا حريم أبهم نفلا * * * و المحصنات صوارخ هتف

هيهات بعدك أن يدوم لهم * * * عز و أن يبقى لهم شرف

أكفف غرب لسانك، و أطو ما انتشر عنك، و تلاف ما فرط منك، فعلمت أنه قد نصحني فجزيته الخير، و قطعت القول فنجوت برأيه، و ما كدت أن أنجو. [2]

فالحسين "قطع القول" و أضمر الرثاء الصادق خوفا من بطش المأمون و قس مثل ذلك على كثير من مواقف الشعراء التي تمليها عليهم ظروف السياسة و آداب المنادمة.

---

1)-من تاريخ الأدب العربي: الدكتور/ طه حسين، 20/ 270- 271.

2)-الأغاني: لأبي الفرج الأصفهاني، 07/ 230.

هكذا إذن كان الخلفاء العباسيون يغضبون على بعض الشعراء، أو يرضون، يقربون أو يبعدون، مما أنشأ جوا نقديا من طراز آخر يتأرجح بين الرغبة و الرهبة و فيها بعض صور تلك العلاقة النقدية الخاصة بين الخلفاء و الشعراء من جهة، و ما أفرزته من علاقات بين الشعراء أنفسهم من جهة أخرى، و قد كانت غالبا تبدأ- إيجابا و سلبا- منذ أن ينعى خليفة، و ينادى بآخر، أو حينما يستلزم اختيار ولي للعهد، كل هذه الظروف تجعل الشعر وثيق الصلة بالسياسة، لأن كلا منهما بهذا المفهوم ينفع الأخر، فالشاعر يرى في الخليفة مصدر ثروة لذلك يحرص على أن يرضيه بكل ما أوتي من مقدرة فنية، و الخليفة يرى في الشاعر وسيلة من وسائل الإعلام، و الإقناع، و تثبيت أركان الدولة و بث مبادئها بين العوام.

و هنا يجدر تسجيل ملاحظتين هما:

1* أن هذا المبحث لا يختص بالتاريخ للشعر السياسي في العصر العباسي، و ما إليه...

2*و هو كذلك، لا يهتم بمن اتصل بالخلفاء العباسيين من شعراء و مدحهم، لأن ذلك يجاوز هذا البحث، و ينوء بهذا المبحث.

و إنما نقصد من وراء هذه الأسطر، إظهار أحد مجالات الإسهامات النقدية لهذه الفئة و ما أنجر عنها من أحكام نقدية أسهمت في إذكاء جمرة الشعر...وفق معياريتين حددتا سابقا.

و هو ما سيتأتى لنا من خلال الحديث عمن كانت لهم صلة بالخلفاء العباسيين دفاعا عن دولتهم، و دفعا عن أحقيتهم، و حجاجا لسواهم، و هو- حسبنا- محك، يفرض على الشاعر، التزام المعياريتين السالفتي الذكر، طلبا للإقناع و جريا وراء الحظوة، أو اتقاء لشر مستطير قد يصبه عليه هؤلاء الخلفاء بما أوتوا من سلطة مادية و معنوية.

و يكفي أن نشير في هذا المقام إلى أن الزهد في مصاحبة الخلفاء يورث خمول، ذكر في سماء الأدب، و كساد بضاعة في دنيا الإبداع فهذا مثلا، ربيعة الرقي ابتعد عن "مجالسة الخلفاء، فأخمل ذكره بسبب ذلك."(1)

---

1)-تاريخ آداب اللغة العربية: لجرجي زيدان،397/01.

فكان لزاما على الشاعر أن يتصل بالخليفة من جهة، و أن يحسن هذا الاتصال من جهة أخرى، فأخلاق الملوك توصف بالتلون و التغير؛ لأن الملوك لهم بدوات، و قد شبه بها يوما من أيام الربيع من قال:

و يوم كأخلاق الملوك ملون * * * فشمس و دجن ثم ظل و وابل

أشبهه إياك يا من صفاته * * * دنو و إعراض و منع و نائل [1]

و من ذلك أن أبا دلامة، دخل على المنصور لما توفي السفاح، و الناس عنده تعزيه، فأنشأ يقول:

أمسيت بالأنبار يا بن محمد * * * لا تستطيع إلى البلاد حويلا

ويلي عليك و ويل أهلي كلهم * * * ويلا يكون إلى الممات طويلا

مات الندى إذ مت يا بن محمد * * * فجعلته لك في التراب عديلا

إني سألت الناس بعدك كلهم * * * فوجدت أسمح من رأيت بخيلا

أ لشقوتي أخرت بعدك للذي * * * يدع السمين من العيال هزيلا.

فأبكى الناس قوله، فغضب المنصور غضبا شديدا، و قال:" لئن سمعتك بعدها تنشد هذه القصيدة لأقطعن لسانك."[2]

فرد فعل المنصور يبدو لكل من شاعر و الحضور غريبا، و يدعو إلى العجب، ذلك أن أبا دلامة ما زاد على استنفد معاني الرثاء، و استحضر أدعى العواطف إلى البكاء، والأسى على هذا الفقيد العظيم...، لكن لم غضب المنصور، و المرثي أخوه؟ و واقع الحال يقتضي حسن إجازته الشاعر؟

إن مثل هذه الطباع تسترعي حقا الوقوف عندها، هذه الطباع التي لا ترضي أن يسلب ما قد يخلع عليها من مدح، برثاء حار جاوز الإسراف؛ و كأني بالمنصور يقول لهذا الشاعر الذي لم يبق كريما بعد السفاح، و لا ترك لسواه فضلا أنّى أعطيك و قد حكمت على نفسك بالشقوة و وصفتني بمن " يدع السمين هزيلا" ، و دفنت مع أخي الندى و صرت ترى كل من بعده بخيلا.

---

1)-ثمار القلوب: للثعالبي، ص: 184.

2)-طبقات الشعراء: لابن المعتز، ص: 54.

و لا شك أن ردة الفعل هذه ستجعل أكثر من شاعر عازم على رثاء أبي العباس "بكل لسانه" يحجم و " يقطع القول"، كما قطع الحسين بن الضحاك القول فيما بعد...

و من أمثلة المواقف التي أسهمت في تولية أحد أبناء الخليفة ولاية العهد، ذلك الموقف الذي خاطر به سلم الخاسر مع الرشيد حين عقد البيعة لأبه محمد الأمين قوله:

قد بايع الثقلان مهدي الهدى * * * لمحمد بن زبيدة ابنة جعفر

و ليته عهد الأنام و أمرهم * * فدمغت بالمعروف رأس المنكر[1]

بتشجيع من زبيدة التي وهبته مائة ألف درهم، و هي عطية من امرأة علمت سطوة الشاعر و موقعه في قلوب الخاصة و العامة، و لا أدل على ذلك من موقف العماني الراجز حينما دخل على الرشيد فأنشده قوله:

قل للإمام المقتدى بأمه * * * ما قاسم دون مدى ابن أمه

فقد رضيناه فقم فسمه

فأمر الرشيد بتولية ابنه القاسم ولاية العهد.[2]

و يتكرر ذات الموقف مع ذات الشاعر، حين يوصي مرة أخرى الرشيد بتولية ابنه الأمين، فيرد عليه الرشيد:" أبشر يا عماني بولاية محمد العهد."(2)

و نحن إذا تأملنا ولوع العماني بالحديث عن ولاية العهد، نجده لقصور غيره أو لزهدهم في ما قد ينجر عن مثل هذه المواقف...، خاصة و أن العماني و أمثاله كما يحدثنا صاحب الأغاني كان قليل طروق أبواب الخلفاء، و يدلك على ذلك عدم معرفته بذوق الخلفاء، و آداب إنشاد الشعر بين يديهم حين دخل على الرشيد متزيبا بزي الأعاجم فقال له:" إيّاك أن تنشدني إلا و عليك عمامة عظيمة الكور، و خفان دلقمان."(4)

---

1)-ينظر الأغاني: لأبي فرج الأصفهاني،19/ 234.

2)-ينظر العمدة: لابن رشيق،01/ 294.

3)-الأغاني: لأبي فرج الأصفهاني،222/18.

4)-الشعر و الشعراء: لابن قتيبة، ص: 511.

و لكن بعض الشعراء، و رغم سابق عهدهم بخلفاء سابقين من الأمويين، إلا أنهم لا يتورعون في الانتقال إلى النقيض، كمروان بن أبي حفصة الذي لم يأبه لصلة أجداده القوية ببني أمية و اختار أن يكون شاعر العباسين، الأثير المنافح على أحقيتهم في الخلافة، و الذاب على جدارتهم في أن يكونوا قادة، حتى و إن اقتضى ذلك نصب العداء للعلويين يقول صاحب الأغاني في ذلك" كان مروان شديد العدواة لآل أبي طالب، و كان ينطق عن نية قوية يقصد بها طلب الدنيا فلا يبقى و لا يذر."(1)

و لعل عبارة أبي الفرج الأخيرة"لا يبقي و لا يذر" تدل دلالة واضحة على قوة هذا الشاعر إذا أراد الوصول إلى غاية و تمكنها في صدور الناس، و مما يكشف ذلك، إعجاب الخلفاء العباسيين بشعره، و تقديمهم له على من سواه و إكرامه و إجزال العطاء له؛ فقد دخل على المهدي مرة، فانشده قصيدته التي مطلعها:

طرقتك زائرة فحيّ خيالها * * * بيضاء تخلط بالجمال دلالها.

فأنصت الناس حتى بلغ قوله:

هل تطمسون من السماء نجومها * * * بأكفكم أو تسترون هلالها

أو تحجبون مقاله عن ربكم * * * جبريل بلغها النبي فقالها.

شهدت من الأنفال آخر آية * * * بترابهم فأردتهم إبطالها

فزحف المهدي من صدر مصلاه حتى صار على البساط إعجابا بما سمع، و أجاز عن كل بيت مائة ألف درهم، فكان مجموع أبيات القصيدة مائة بيت، و كانت الجائزة مائة ألف درهم، و هي أول مائة ألف أعطيها شاعر في أيام بني العباس(2) .

و قد كان كلما زاد عطاؤهم زادت نصرته لهم، و تفانيه في خدمتهم، فقد دخل على المهدي مرة أخرى و أنشده قوله:

أنى يكون و ليس ذاك بكائن * * * لبني البنات وراثة الأعمام

فأجازه بسبعين ألفا درهم فقال مروان:

سبعين ألفا راشني من حبائه * * * و ما نالها في الناس من شاعر قبلي[3] .

---

1)-الأغاني: لأبي الفرج الأصفهاني،158/13.

2)-نفسه:91/10.

3)-ينظر المحاسن و المساوىء: للبيهقي، ص: 219، 220.

و لكن مثل هذه الأبيات التي كان يهتدي إليها مروان في كل مرة يريد فيها إثبات نظريته في أحقية بني العباس بالحكم، و تماديه و شططه، أورثاه كما يقول صاحب الأغاني موتا معجلا على يد بعض العلويين. (1)

كما أورثناه كذلك برودة عاطفة، و خفوت انفعال حسب رأي مصطفى الشكعة حين يقول" لا تبدو فيه سمات الصدق أو آيات الانفعال و إنما هي بضاعة يقدمها الشاعر و يأخذ ثمنا لها(2).

و من أمثلة هذا اللون من الشعر المنظوم "البضاعة" قصيدة مروان بن أبي الجنوب حفيد مروان بن أبي حفصة، التي يقول فيها:

ملك الخليفة جعفر * * * للدين و الدنيا سلامة
لكم تراث محمد * * * و بعد لكم تشفى الظلامة
يرجو التراث بنو البنا * * * ت وما لهم فيها قلامة
و الصهر ليس بوارث * * * و البنت لا ترث الإمامة
ما للذين تنحلوا * * * ميراثكم إلا الندامة
أخذ الوراثة أهلها * * * فعلام لومكم علامه
لو كان حقكم لما * * * قامت على الناس القيامة
ليس التراث لغيركم * * * لا و الإله ولا كرامة
أصبحت بين محبكم * * * و المبغضين لكم علامة (3)

---

1)-الأغاني: لأبي فرج الأصفهاني،100/10.

2)-الشعر و الشعراء في العصر العباسي: الدكتور/ مصطفى الشكعة، ص: 35.

3)-تاريخ الأمم و الملوك: للطبري،116/05- 117.

و هي منظومة أقرب إلى متون علم المواريث منها إلى الشعر الصادق المنعم بالحياة.

و ممن كان يتشيع للعباسيين منصور النمري، الذي يقول فيه أبو الفرج إنه: " عرف مذهب الرشيد في الشعر، و إرادته أن يصل مدحه إياه بنفي الإمامة عن ولد علي بن أبي طالب-عليه السلام- و الطعن عليهم، و علم مغزاه في ذلك مما كان يبلغه من تقديم مروان بن أبي حفصة، و تفضيله إياه على الشعراء في الجوائز، فسلك مذهب مروان في ذلك، و نحا نحوه، و لم يصرح بالهجاء و السب كما كان يفعل مروان لكنه حام، و لم يقع و أومأ و لم يحقق لأنه كان يتشيع." (1)

و يبدو أن النمري ما انتهج هذا الطريق إلا بعد أن يئس من سلوك سواه خاصة مع الرشيد الذي يروي صاحب الأغاني أنه بالغ في رده.

فقد دخل على الرشيد فأنشده، فلم يثبه و أمر بصرفه، فقال منصور:" يا أمير المؤمنين، قد دخلت إليك دخلتين لم تعطن فيهما شيئا و هذه الثالثة و والله لئن حرمتني لا رفعت رأسي بين الشعراء أبدا"(2).

و قد يؤدي هذا التملق و التلاعب بالشاعر إلى الموت، كما حدث مع ذات الشاعر حين اكتشف الرشيد أنه يمدح العلويين، و يميل إليهم، و بلغه شعر له في ذلك فهَّم بقتله لو لا أن المنية سبقته إليه. (3)

و تتوالى قصص الشعراء مع الخلفاء العباسيين، على هذا النسق فنجد أبان اللاحقي الذي تشبه قصته قصة النمري، فقد كان هو الآخر شاعر البرامكة فأراد أن يصيبه مثل ما أصاب مروان من جوائز الرشيد، و بلغ به الجشع أن "عاتب البرامكة في إعطاء الرشيد الأموال للشعراء،.... فقال الفضل: إن سلكت مذهب مروان، أوصلت شعرك، و بلغت إرادتك، قال و الله ما أستحل ذلك، فقال له الفضل كلنا يفعل ما لا يحل و لك بنا و سائر الناس أسوة فقال أبان:

---

1)-الأغاني: لأبي الفرج الأصفهاني،158/13.

2)-نفسه: 23/ 93.

3)-نفسه:230/23

نشدت بحق الله من كان مسلما * * * أعم بما قد قلته العجم و العرب

أعم رسول الله أقرب زلفة * * * إليه أم ابن العم في رتبة النسب

و أيهما أولى به و بعهده * * * و منا له حق التراب بما وجب

فإن كان عباس أحق بتلكم * * * و كان علي بعد ذاك على سبب

فأبناء عباس هم يرثونه * * * كما العم لابن العم في الإرث حجب" (1)

و هي حقا تذكرنا بقصائد المروانيين الأكبر و الأصغر، في برودتها، و اعتمادها على مقدمات فلسفية، و آراء فقهية، رغم أن الجميع يعلم أن "النبوة ليست ملكا فتورث، و حتى لو تصورنا المستحيل و كان هنا حكم يحتاج إلى من يليه، فالولاية الطبيعية هي عن طريق الشورى، و اختيار جمهور المسلمين"(2).

و كما أن الشاعر قد يكون أداة طيعة في يد الخليفة، فهو كذلك قد يضيق ذرعا بقيوده، خاصة إذا بلغ منه اليأس في نيل حظوته مبلغا عظيما، و استفد حيله كلها، فيصير معول هدم لا تؤمن عواقبه، كما حدث مع أبي عطاء السندي" بباب أمير المؤمنين أبي العباس، و بنو هاشم يدخلون و يخرجون، فقال:

إن الخيار من البرية هاشم * * * و بنو أمية أرذل الأشرار

و بنو أمية عودهم من خروع *** و لهاشم في المجد عود نضار

أما الدعاة إلى الجنان فهاشم * * * و بنو أمية من دعاة النار

و بهاشم زكت البلاد و أعشبت * * و بنو أمية كالسراب الجاري

فلم يؤذن له في الدخول على أبي العباس، و لم يصله أحد من بني هاشم، فولى و هو يقول:

يا ليت جور بني مروان عاد لنا ** * و إن عدل بني العباس في النار" (3)

و هو خبر يصور لنا بحق هوى أولئك الشعراء المتقلب، و مزاجهم المضطرب حين لا يتوانون في بذل إخلاصهم لمن يدفع أكثر، و منح ولائهم لمن يجازي و يكافيء أعظم.

هي ذي حال الشعر مع السياسة باعتبارها مجالا من مجالات النقد، أسهم فيه ما أسهم من الخلفاء العباسيين، إيجابا و سلبا.

---

1)-الأوراق: قسم أخبار الشعراء: للصولي،نشر ج.هيورث ،مطبعة الصاوي-القاهرة- ط01، 1934 ، ص: 14.

2)-الشعر و الشعراء في العصر العباسي: للدكتور/ مصطفى الشكعة، ص: 47.

3)-المحاسن و المساوىء: للبيهقي، ص: 246

فسمي بعض الدارسين هذه العلاقة، بالجناية على الشعر و أهله[1]، و هي فيما نرى مبالغة قد تتضاءل إذا علمنا أن الشعراء الذين تطالهم طائلة الخلفاء، إنما كانوا من المبتدئين، أما الشعراء الذين ذاع صيتهم في الآفاق فقد كان الخلفاء هم الذين يجرون وراءهم و يرغبون في قدومهم؛ كالحسين بن الضحاك الذي لم يكن" كغيره من الشعراء، و إنما كان متصلا بالخلفاء اتصالا شديدا يعاشرهم و يرافقهم، و يتدخل في حياتهم الخاصة، و ربما تدخل إلى أكثر مما ينبغي، و كان الخلفاء يبحثون عنه، و يحرصون على عشرته و يبذلون في ذلك غير قليل من الإلحاح و العطاء."[(2)]

و لا شك أن مثل هؤلاء الشعراء، كانوا يستقلون بآرائهم، و مذاهبهم الإبداعية، و لا يعدلون بها شيئا من أموال الخلفاء الباحثين عمن يذيع آرائهم، و ينتصر لهؤلاء مقابل ثمن قد يزيد أو ينقص، حسب ما يبديه الشاعر من طواعية و تملق.

---

1)--ينظر الحركة الأدبية في مجالس الخلفاء العباسيين: للباحث محمد البشير قط، ص: 95.

2)-من تاريخ الأدب العربي: للدكتور/ طه حسين، 2/270- 271.

الخـــــــاتـــمـــة

لقد توصلت هذه الدراسة على مدى ثلاثة فصول و مدخل إلى النتائج الآتية:

1*- عرف العصر الأموي ضربا من النقد ، كان فيه للجمال و الأخلاق حظ وافر عند بعض الشخصيات ، كابن أبي عتيق و معاوية وعبد الملك ، وإن كانت المعيارية لم تتسم بعد بالدقة التي تستلزمها الممارسة النقدية المتخصصة .

2*-اقتصرت بيئات النقد على بيئات الشعر نفسه، فلم تجاوز الحواضر الكبرى في العراق و الحجاز والشام، وقد غيرت كل منها بنوع من النقد تبعا للظروف العامة، ففي حين كان الحجازيون منكبين على حياة اللهو والترف ،عكف العراقيون على تحصيل العلوم العقلية و الأدب ...بينما بقي الشام مجرد حاضن للإبداع باعتباره عاصمة الدولة يقصده المبدعون باحثين عن جوائز الخلفاء.

3*- تميز الخلفاء العباسيون عن الأمويين في مجالسهم بمغالاتهم في طلب المعاني المبتكرة ،و الصور المبدعة،مجاراة لمغالاتهم في الترف وطلب المتع المادية ،فكانت تتطبع بخصائص كل خليفة،مما دفع بالشعراء إلى تنويع أدواتهم الإبداعية و الاستعانة بما أتيح لهم من علوم .

كما تميزوا كذلك بثقافتهم الواسعة و رغبتهم الجادة في تحصيل أدوات النقد تفاديا لما لم يرضوا به من نمطية "السماع و "العطاء" والاكتفاء بمجرد الانفعال الداخلي... حتى فهم الشعراء والمحيطون بهم ذلك فصاروا يحسبون لهم قبل الدخول عليهم ألف حساب.

و حتى وصفوهم كما رأينا بأوصاف كانوا يضنون بها حتى على علمائهم.

4*-تفاعل الخلفاء العباسيون تفاعلا بينا مع ما كان يسود عصرهم من معايير نقدية عامة،كل حسب ظروفه الذاتية ،و الموضوعية،بالتبني تارة و من ثم الإبداع كما حدث مع المأمون و الرشيد و المتوكل... و بالدعوة و الحثّ على الإبداع تارة أخرى كما حدث مع أبي جعفر المنصور، دون أن يفرقوا بين الرواة ، والشعراء ، و لا بين المبدعين ، وغيرهم من الوزراء و الندماء ،مما يؤكد أهمية هذه الفئة في التأسيس للنقد الجاد ، و إسهامها في إرساء معالمه إسهاما يقل أو يكثر .

فالمنصور مثلا كان له فضل السبق في الإشارة إلى حسن اللفظة أو قبحها منفردة و في سياقها، انطلاقا من إدراكه للإيقاع العام للبيت كما سبق -بالإشارة -قدامة بن جعفر إلى الحث على طلب المدح المرتكز على الصفات المعنوية، حين فرض على الشعراء معان مدحية بذاتها شرطا للدخول عليه .

كما وجدنا الرشيد بعده ينقد عددا من الشعراء متوخيا مبدأ جماليا واضحا ، صار أساسا من أسس البلاغة و هو مراعاة تجانس مقاطع الأجزاء في البيت اعتمادا على سجع أو شبيه به ، أو جنس واحد في التصريف كما يقول قدامة، غير أن ذلك لم يكن يعني التخلي عن بعض المعايير الأخلاقية ، حفاظا على ما للقب الخليفة من دور و هيبة و سلطة مادية ومعنوية على قلوب الناس ، فنجد المهدي لا يتوانى في إنزال أنكى العقوبات على كل من جاوز حد ما يستوجبه الحياء و الحشمة و الأعراف، و كذلك نزع المأمون قبله إلى ذلك المبدأ في كثير من إسهاماته النقدية.

7*-نتج عن تدخل الشعر في مجالات الحياة ظهور بعض المعاني التي كرسها أصحابها لكسب المال ، و استمالة الخليفة على حساب الصدق الفني و الأداء العاطفي كمروان بن أبي حفصة ، و منصور النمري و غيرهما ، وهو حكم لا ينسحب على كل الشعراء الذين اتصلوا بالخلفاء العباسيين ، لأننا نجد بعضهم ظل مستقلا بمذهبه الإبداعي حريصا على تمثيل عواطفه كالحسين بن الضحاك مثلا...

هذه باقتضاب بعض ما توصلت إليه هذه الدراسة من نتائج على أمل أن يتاح لها مجال أرحب في حقل علمي جديد.

قائمة المصادر والمراجع:

-أ-

01)- أخبار البحتري:للصولي،تحقيق الدكتور صالح الأشتر،مطبوعات المجمع العلمي العربي-دمشق-1958 .

02)- أدب السياسة في العصر الأموي :لأحمد محمد الحوفي ،دار القيم -بيروت-لبنان د.ت.

03)-إحياء علوم الدين :للغزالي أبي حامد ،تحقيق السيد إبراهيم ،دار الحديث -القاهرة- د.ت.

04)-الأسس الجمالية في النقد العربي:د/عز الدين إسماعيل،دار الفكر العربي -القاهرة- د.ط،1992.

05)-الأعلام:لخير الدين الزركلي، ط03 .د.م.ت.

06)-الالتزام الإسلامي في الشعر:لناصر بن عبد الرحمان الخنين ،دار الأصالة و الثقافة و النشر والإعلام-الرياض-1408-1987.

07)-الالتزام في الشعر العربي:لأحمد أبو حاقة،دار العلم للملايين-بيروت- لبنان 1979.

08)-الأوراق وأخبار الشعراء:للصولي،نشر ج هيورث ،مطبعة الصاوي -القاهرة-ط1 ، 1934.

09)-الأغاني:لأبي الفرج الأصفهاني،تحقيق سمير جابر،دار الفكر-بيروت-ط02، 1983 .

10)-الأذكياء :لابن الجوزي ابن الفرج عبد الرحمن ،مكتبة الغزالي،د.تاريخ.

-ب-

11)- بدائع البدائه:لابن ظافر الأزدي،جمال الدين علي ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم،مكتبة الأنجلو مصرية-القاهرة-1970.

12)- البيان والتبين:لأبي عثمان عمرو بحر،تحقيق المحامي فوزي عطوة،دار صعب - بيروت-ط01 ،1968.

13)-البداية والنهاية:لابن كثير،تحقيق أحمد بن ملحم وآخرين ،دار الكتب العلمية-بيروت-1989.

-ج-

14)- جمهرة أشعار العرب :لأبي زيد محمد بن الخطاب ،تقديم وشرح خليل شرف الدين،دار ومكتبة الهلال -بيروت- لبنان،1999.

15)-جواهر الألفاظ:لقدامة بن جعفر،طبعة الخانجي،1932.

16)-الجامع لأحكام القرآن:للقرطبي،دار الكتاب العربي-بيروت-لبنان.

- د-

17)-دلائل الإعجاز:للجرجاني أبي بكر عبد القاهر بن عبد الرحمان بن محمد ،تحقيق د/ محمد التنجي،دار الكتاب العربي-بيروت-ط01 ،1995.

18)-دراسات في الأدب الإسلامي:لسامي مكي العاني،المكتب الإسلامي-بغداد-1975.

- و-

19)-وفيات الأعيان :لابن خلكان،تحقيق إحسان عباس،دار صار-بيروت-.

20)-الوافي بالوفيات:للصفدي أبي الصفاء صلاح الدين خليل بن أيبك ،الطبعة غير المنقحة باعتناء،س. ديدرينغ ،دار النشر،فرانز شتاينر بقيسبادن،1981.

21)-الورقة:لابن جراح ،تحقيق عبد الوهاب عزام وعبد الستار أحمد فراج ،دار المعارف-مصر-ط02 ،د.ت.

22)-الوساطة بين المتنبي وخصومه:للقاضي الجرجاني،تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم و علي محمد البجاوي ،المكتبة العصرية-صيدا-د.ت.

- ح-

23)-الحيوان:للجاحظ ،تحقيق عبد السلام هارون ،دار الكتاب العربي -بيروت-ط03،1969.

- ط-

24)-طبقات النحويين واللغويين:للزبيدي ،تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ،دار المعارف -مصر-1973.

25)-طبقات الشعراء:لابن المعتز ،تحقيق عبد الستار أحمد فراج،دار المعارف -مصر- ط02 ،1986.
26)-طبقات فحول الشعراء:لابن سلام الجمحي،تحقيق محمود محمد شاكر،دار المدني - جدة-ط01 ،1983.

- ك-

27)-كتاب الصناعتين، الكتابة و الشعر :لأبي هلال العسكري،طبعة الآستانة،1319 ه.
28)- الكامل في اللغة و الأدب:للمبرد أبي العباس محمد يزيد،مؤسسة المعارف -بيروت-د.ت.

- ل-

29)-لسان العرب:لابن منظور،دار صادر ودار بيروت-بيروت-1968.
30)-لباب الآداب :لأسامة منقذ الكناني،تحقيق أحمد محمد شاكر،المطبعة الرحمانية - مصر-1935.

- م-

31)-مروج الذهب ومعادن الجوهر:للمسعودي، دار الأندلس-بيروت- ط05 ،1983.
32)-معجم الأدباء:لياقوت الحموي،تحقيق أحمد فريد الرفاعي،مطبعة دار العلوم - القاهرة-.
33)-محاضرات في تطور الأدب الأوربي:د/حسام الدين الخطيب مكتبة الأنجلو مصرية،1974 .
34)-معجم البلدان: لياقوت الحموي،دار صادر ودار بيروت-بيروت-1984.
35)-من روائع حضارتنا:د/مصطفى السباعي،دار الصديقية الجزائر دت.
36)-مقدمة في النقد الأدبي:د/محمد حسن عبد الله ،دار البحوث العلمية ،ط05 ،1971.
37)-مقالة في النقد:لقراهام هوت ،ترجمة محي الدين صبحي،مطبعة جامعة دمشق،1973.
38)-المدخل في النقد الأدبي:لنجيب فايق أندراوس،مكتبة الأنجلو مصرية ،1974.
39)-المثل السائر:لابن الأثير أبي الفرج ضياء الدين عبد الحميد،المكتبة العربية دت.
40)-مختار الأغاني:لابن منظور،تحقيق زهير الشاويش ،المكتب الإسلامي-بيروت-د.ت

41)-المأمون الخليفة العالم : مصطفى هدارة(سلسة أعلام العرب)الدار المصرية للتأليف والترجمة-مصر-د.ت.

42)-المستطرف في فن مستظرف:للأبشيهي شهاب الدين محمد بن أحمد أبي الفرج،تحقيق د/ مفيد محمد قميحة، دار الكتب العلمية -بيروت-ط02 ،1986.

43)-المحاسن والمساوئ:للبيهقي إبراهيم بن محمد ،دار بيروت للطباعة والنشر-بيروت-1979 .

44)-المجتمع العراقي في شعر القرن 4 الهجري:لعبد اللطيف الراوي،مكتبة النهضة -بغداد-د.ت.

45)-الموشح :للمرزباني محمد بن عمران بن موسى،نهضة مصر 1965.

46)-المدارس النحوية ،لشوقي ضيف ،دار المعارف -مصر-د.ت.

47)-الموازنة بين شعر أبي تمام و البحتري :للآمدي أبي القاسم الحسن بن بشر،تحقيق عبد الله حمد محارب ، مكتبة الخانجي-القاهرة-1990 .

-ن-

48)-نزهة الألباء في طبقات الأدباء:لابن الأنباري ،تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم،دار النهضة للطباعة والنشر -مصر- د.ت.

49)-النقد الأدبي الحديث:لمحمد غنيمي هلال ،دار العودة-بيروت-ط01 ،1982.

50)-النقد العربي الحديث أصوله ،قضاياه،ومناهجه:للدكتور محمد زغلول سلام، مكتبة الأنجلو المصرية دت.

51)-النقد الأدبي و العلوم الإنسانية:لجان لوي كابانس ،ترجمةفهد عكام ،دار الفكر دمشق-سوريا-ط01 ،1988.

52)النقد(سلسلة فنون الأدب العربي)الفن التعليمي:لشوقي ضيف ،دار المعارف-مصر-ط04، 1979 .

- ع -

53)-عيار الشعر:لابن طباطبا العلوي،محمد بن احمد تحقيق الدكتور طه الحاجري، و الدكتور محمد زغلول سلام،المكتبة التجارية الكبرى-القاهرة-1956دط .

54)-عصر المأمون :د/أحمد فريد الرفاعي ،مطبعة دار الكتب المصري-القاهرة-ط1927،01 .

55)-العقد الفريد:لابن عبد ربه ،تحقيق أحمد حسن وآخرين،دار الكتاب العربي-بيروت-1982.

56)-العلامة اللغوي بن فارس الرازي :د/ محمد مصطفى رضوان،دار المعارف-مصر-1971

57)- العمدة في محاسن الشعروأدبه ونقده :لابن رشيق أبي الحسن القيرواني ،تحقيق محي الدين عبد الحميد ،دار الرشاد الحديثة الدار البيضاء- المغرب- د.ت.

- ف-

58)-في ظلال القرآن :لسيد قطب،دار الشرق-مصر-د.ط،1985 .

59)-فوات الوفيات والذيل عليها:لابن شاكر الكتبي،تحقيق د/إحسان عباس ،دار الثقافة بيروت،1974 .

60)-فتح الباري شرح صحيح البخاري:للعسقلاني ابن حجر،دار المعرفة -بيروت-دت.

61)-الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية:لابن الطقطقي،مكتب عز للتوريدات و مكتبة فونسيون-مصر-د.ت

- ق-

62)-قرى الضيف:لعبد الله بن محمد بن عبيد بن سفيان بن قيس،تحقيق عبد الله بن محمد المنصور،أضواء السلف-الرياض-ط01 ،1997.

63)-قضايا النقد الأدبي بين القديم والحديث:د/ محمد زكي العشماوي ،دار النهضة العربية -بيروت-د.ط.1979.

64)-القرآن الكريم.

- ش-

65)-شرح نهج البلاغة:لابن أبي حديد عز الدين أبي حامد بن محمد ،دار مكتبة الحياة-بيروت-د.ت.

66)-شذارات من كتب مفقودة في التاريخ:جمع وتحقيق د/إحسان عباس ،دار الغرب الإسلامي ط1 ،1988.

67)-الشعر والشعراء:لابن قتيبة،تحقيق عبد المنعم العريان،دار إحياء العلوم -بيروت-ط03 ،1987 .

68)-الشعر والشعراء في العصر العباسي :د/مصطفى الشكعة،دار العلم للملايين -بيروت-ط05 .1980 .

69)-الشعراء و إنشاد الشعر:لعلي الجندي،دار المعارف -مصر-1962.

- ت-

70)-تاريخ النقد الأدبي عند العرب:د/إحسان عباس ،دار الثقافة -بيروت-ط4 ،1983.

71)- تاريخ النقد الأدبي عند العرب(من العصر الجاهلي إلى القرن 04هـ):لطه أحمد إبراهيم ،المكتبة العربية -بيروت-1981.

72)-تاريخ بغداد:للخطيب البغدادي،أبي بكر بن علي بن ثابت،دار الكتاب العربي -بيروت-د.ت.

73)-تاريخ الأمم والملوك:للطبري، أبي جعفر محمد بن جرير مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر،ط01 ،1986 .

74)-التفكير النقدي عند العرب:للعاكوب عيسى علي، دار الفكر المعاصر -بيروت-لبنان،1997 .

75)-التصوير الفني في القرآن الكريم :لسيد قطب،دار الشروق -القاهرة-13، 1993.

- ث-

76)-ثمار القلوب في المضاف والمنسوب:للثعالبي،أبي منصور عبد الملك ،تحقيق إبراهيم أبو الفضل،دار المعارف -القاهرة-ط01 .1965 .

77)-ذيل الأمالي والنوادر:للقالي أبي علي ،طبع مع الأمالي للقالي ،دار الكتب العلمية -بيروت-1978 .

- ظ-

78)-الظاهرة الجمالية في الإسلام :للشامي، صالح أحمد،المكتب الإسلامي بيروت،دمشق،ط01 .1988 .

❖ الرسائل والمجلات والدوريات:

1/الرسائل:

-الحياة الأدبية في مجالس الخلفاء العباسيين (حتى نهاية القرن 03الهجري):إعداد مصطفى البشير قط،رسالة ماجيستير (94-95) جامعة الجزائر.

2/المجلات و الدوريات:

- مجلة النقد العربي:فصول المجلد .6.الأعداد.2 .3 .4. ،يناير،فبراير، مارس ،1986.

-عالم الفكر ،مجلد 27،عدد01،سبتمبر 1998، الكويت.

-مجلة الآداب و العلوم الانسانية،جامعة الأمير عبد القادر-قسنطينة- ،عدد03 ،رمضان 1424،نوفمبر 2003 الجزائر.

-*الفهـــــــرس*-

المقدمة

المدخل:النقد الجمالي و الأخلاقي في العصر الأموي.....06

1/بيئة الحجاز.....07

أ*-ابن أبي عتيق.....08

ب*-السيدة سكينة بنت الحسين.....12

2/بيئة العراق.....15

أ*-الشعراء.....16

ب*-النحاة والرواة 22

3/النقد في بيئة الشام.....23

أ*-معاوية بن أبي سفيان.....24

ب*-عبد الملك بن مروان.....29

الفصل الأول:المعيارية الجمالية في إسهامات الخلفاء العباسيين النقدية 42

1/مفوم الشعر.....45

2/الإيقاع.....50

أ*-الزماني.....50

ب*-المكاني.....57

3/العلاقات.....63

أ*-جمالية البيت.....65

*العكس.....69

ب*-جمالية القصيدة.....70

1-الابتداء و حسن الافتتاح.....70

2-الصياغة وجودة المعنى.....74

ج*-الحكم على الشاعر.....75

الفصل الثاني:المعيارية الأخلاقية في إسهامات خلفاء بني العباس النقدية.....78
1/وظيفة الشعر الأخلاقية.....80
2/المعيارية الأخلاقية في نقد الأغراض.....80
أ-*الغزل والنسيب و التشبيب.....80
ب*-المدح.....91
ج*-الهجاء.....96
د*-الرثاء و الزهد والحكمة.....100
الفصل الثالث:الأحكام النقدية لخلفاء بني العباس و ارتباطها بالمعايير النقدية العامة.....108
1/الإبداع(الخلفاء العباسيون وقرض الشعر).....109
2/الخلفاء العباسيون و رواية الشعر.....113
3/امتحان الخلفاء العباسيين الشعراء و اقتراحهم المواضيع الشعرية.....120
4/المساجلات الشعرية و المشاركة فيها.....126
5/مجال السياسة و مجالس الحكم.....132
الخاتمة.....141
المصادر و المراجع.....143
الفهرس.....150